

أعلام التربية في تاريخ الإسلام

ابن تيمية

تأليف

عبد الرحمن النخلاوي

أستاذ التربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



Bibliotheca Alexandrina



0114990

29

دار الفكر
دمشق سورية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ابن تيمية

اعلام التربية في تاريخ الإسلام
١

ابن تيمية

تأليف

عبد الرحمن النخلاوي

أستاذ التربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الفكر

دمشق سورية

تصوير ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م
الكتاب ٧٠٤
الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م



جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير ، كما يمنع الاقتباس منه ، والترجمة إلى لغة أخرى ، إلا بإذن خطي من دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (١٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Sy 411745 FKR Tx

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أجيال الأمة العربية والإسلامية .

إلى الباحثين عن الحق والحقيقة في كل مكان من هذا العالم .

إلى أبنائي وبناتي الأعزاء وأمهم ، في عشهم الحصين الذي ربّوا فيه تربية إسلامية ، وقد هيئوا لي فيه كل ما استطاعوا من جوّ صافٍ للتأليف والتفكير ..

وأخص منهم ابنتي الطبيبة الدكتورة (غُنية) جزاها الله عني وعن المسلمين خيراً .

إلى طلابي الأعزاء في دمشق والمغرب والمملكة العربية السعودية وأخص منهم طلاب جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

إلى الزملاء الأفاضل معالي مدير جامعة الإمام وعمداء كلياتها وجميع أساتذتها ، في المملكة العربية السعودية .

إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا الجهد المتواضع راجياً أن يُلَقَى منهم

بعض القبول ، وأن يهدوا إليّ عيوب نفسي ، إن وجدوا فيه ما يحتاج
إلى النقد والتسديد .

والله أسأل أن يسدّد خطانا إلى الحق إنه سميع مجيب .

مقدمة

الحمد لله والصلاة على محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، هادياً ومبشراً ومريئاً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

وبعد فقد تشتد حاجة أبناء الأمة الإسلامية والعربية إلى ما ينير لهم سبل الحياة ، ويأخذ بأيديهم إلى التربية السلية في منعطفات هذا العالم المضطرب .

وهذه (سلسلة أعلام التربية في تاريخ الإسلام) حاولنا فيها أن نجلي الأفكار التربوية المغمورة ، لعدد من أعلام الفكر الإسلامي ، الذين ساهموا في إرساء أسس وقواعد تربوية متينة ، لنظام تربوي جاء متكاملًا منذ اختطته العناية الإلهية . فاقتبسوا من مبادئ هذه التربية ما يفوق كثيراً من مبادئ التربية المعاصرة في الشمول والمرونة والتطبيق .

ورسموا آداباً ونظماً تربوية ، جمعوا فيها من خبراتهم ، وخبرات سلفهم ، مسترشدين بنور الهداية الربانية ، ما لواقديننا به ، لنفضنا عنا غبار التخلف وانطلقنا قُدماً إلى الأمام .

وأطلقوا من نظراتهم الناقدة ونصائحهم التربوية الغالية ،
ما أوضح لنا كثيراً من وقائع التربية وأحوالها في عصرهم ، ومن
الأدوية الناجعة لكثير من الانحرافات التربوية والسلوكية في كل
زمان .

وطبيعة الإنسان ، وفطرته ، وجوهره ، أمور لا تتغير في
حقيقتها ، ولكن قد يعترها انحراف ، أو صدأ ، أو قتر . فتأتي مثل
هذه المحاولات الإنسانية التي توخينا الكشف عنها في هذه السلسلة ،
لتجلو الصدأ ، وتسد الانحراف ، وتوضح المبادئ والأهداف .

وقد يَسِّر الله البدء بعلم من هذه الأعلام ، كان قدوة في العمل
الصالح والعلم النافع ، والجهاد ، شغل حياته بالإصلاح ، لم يبال في
الله لومة لائم ، فكانت حياته الزاخرة بالكفاح والنضال في سبيل
الإصلاح ، كالبحر الزاخر بالأمواج ، وكان غملي في استخلاص آرائه
التربوية ، كصياد المحار يغوص ، ويغوص ، ليستخرج ما يجد من
كوامن الدرر ، ثم ينسق بينها ليعرضها عقوداً من اللؤلؤ . عسى الله
أن ينفع بها أجيال الأمة الإسلامية .

فقد شغل هذا العالم الجليل (أحمد بن تيمية) جهاده وكفاحه
المرير المتواصل ، عن أن يفرد بالبحث والتأليف أموراً تربوية
مقصودة لذاتها ، فكانت ألتقط آراءه التربوية من خلال رسائله التي

ردّها على المنحرفين ، أو الخصوم ، أو على طلابه المسترشدين
السائلين ، ثم أجمع بينها وأربط وأصنف ، وأضم النظر إلى نظيره ،
حتى يمكن الاستفادة منها .

على حين استطاع بعض طلابه ، كما سنرى في بعض حلقات هذه
السلسلة إن شاء الله ، أن يفرد بالبحث عن آداب المولود ، والطب
النبوي ، وبعض أساليب الهدي النبوي ، رسائل وبحوثاً مفيدة .

رحمهم الله جميعاً وجزاهم عن الأمة خيراً .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

سيرة ابن تيمية وبيئته الحضارية والاجتماعية

١ - مولده وأسرته^(١) :

هو أحمد تقي الدين أبو العباس بن الشيخ شهاب الدين أبي الحاسن عبد الحلیم ، بن الشيخ مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن علي بن عبد الله . وتعرف أسرته بأسرة ابن تيمية .

ولد في العاشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وست مئة هجرية ، وكان مولده بمدينة حران ، نشأ فيها إلى أن بلغ السابعة من عمره ، فأغار عليها التتار ، ففرّ أهلها ، وفيهم أسرة ابن تيمية ، هاجرت إلى دمشق ، وهي أسرة علم ، أثمن متاعها الكتب ، نقلوها معهم على مركبة يدفعونها ...

كان والده (الشيخ شهاب الدين) عالماً جليلاً ، ذاع فضله واشتهر بعلمه منذ أن وصل إلى دمشق ، فكان له كزبي للدراسة

(١) ملخصاً عن : محمد أبو زهرة : ابن تيمية : حياته وعصره ط دار الفكر العربي
الطبعة الثانية ١٩٥٨ م ، ١٧ - ٢٠

والتعليم والوعظ والإرشاد بجامع دمشق الكبير ، وتولى مشيخة دار الحديث السكرية وبها كان سكنه ، وفيها تربى أحمد تقي الدين بن تيمية (وكان والده يلقي دروسه غير مستعين بقرطاس مكتوب ، أو كتاب يتلوه منه ، فكان يلقي الساعات من ذاكرته الواعية . مما يدل على قوة الحافظة وهذا ما اتصف به من بعد (أحمد تقي الدين بن تيمية) رحمه الله .

أما جده (مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن تيمية) فقد كان أيضاً عالماً جليلاً يعد من أئمة الفقه الحنبلي المخرجين فيه ، وله كتابات في أصوله قيمة ، وقد رحل إلى البلاد في سبيل العلم ، ودرّس وأفتى ، وكان قد تلقى العلم من عمه فخر الدين ، وكان عالماً وخطيباً وواعظاً ، وجمع تفسيراً للقرآن حافلاً في مجلدات ضخام ، وتخرج على ابن الجوزي خطيب بغداد وواعظها ، وحل محله بالوعظ فيها .

٢ - نشأته وبيئته^(١) :

كانت أسرة ابن تيمية ، إذن ، أسرة علم ، لذلك اتجه إلى العلم وهو غلام صغير ، فحفظ القرآن الكريم منذ حداثة سنه ، وبقي حافظاً له إلى أن فاضت روحه رحمه الله ، وهو يتلو القرآن في السجن ويختمه ويعيده ثمانين مرة .

واتجه بعد حفظ القرآن إلى حفظ الحديث واللغة وتعرف

(١) ملخصاً عن المرجع السابق ٢٠ - ٢٦

الأحكام الفقهية ، وقد امتاز في طفولته بالجد والاجتهاد والانصراف إلى المجدي من العلوم والدراسات لایلهو وهو الصبيان ؛ كما امتاز بالذاكرة الحادة والعقل المستيقظ والفكر المستقيم والنبوغ المبكر ، ورث ذلك عن أبيه بالفطرة والتربية .

درس الحديث وتلقاه وسمع معظم كتبه ودواوينه على المشايخ الكبار ، كالصحيحين والسنن والمسانيد ، مرات ، فكان له أكثر من مئتي شيخ .

وكان يَدْرُس مع الحديث علوماً أخرى كالرياضة ، واللغة العربية درسها كأنه يقصد إليها ليتخصص فيها ، ودرس الفقه الحنبلي وتتبع نشأة هذا المذهب ونموه وكان أبوه من شيوخ المذهب ، فقد لازم أباه ودارس العلماء ونهل من كل ينابيع العلم ..

وكانت دمشق في عهده عس العلماء وفيها معدن العلم ، فقد قرَّ العلماء إليها من بطش التتار من جميع أقطار المشرق الإسلامي ، وقد كان في دمشق مدارس للحديث يدرّس فيها علماء فحول أمثال النووي ، وابن دقيق العيد ، والمزي ، والزملكاني وفيها علماء آخرون كالذهبي والسبكي .

وفيها مدارس للفقه الحنبلي ، ومدارس للفقه الشافعي خصها آل أيوب بمزيد من العناية إذ كان صلاح الدين شافعيًا ، ومدارس لسائر

المذاهب الأربعة ، ومجوار دراسة الفقه دُرست العقائد ، فكان الأيوبيون ينشرون مذهب أبي الحسن الأشعري على أنه السنة التي يجب اتباعها في العقيدة ، فعمّ حتى لم يكن شيء يخالفه ، إلا ما كان عليه الحنابلة ، يقفون في استخراج العقائد عند النصوص ، على حين كان الأشاعرة يسلكون مسلك الاستدلال العقليّ والبرهان المنطقي ، فكان الخلاف قائماً بين أتباع المذهبين ، وكان للحنابلة مدارس خاصة بهم ، كالمدرسة الجوزية ، والسكرية والعمرية ، فيها درس ابن تيمية في كنف أبيه ورعايته .

في هذا الجو العلمي نشأ الفتى الألعى أحمد بن تيمية يحفظ كل ما يحتاج حفظه ، ويعي من علوم عصره كل ما يصل إليه للدفاع عن الحق الذي يؤمن به ، فتعلم العلوم التي كانت رائجة في عصره ، وأحاط بكل المذاهب والاتجاهات الاعتقادية ليردّ عليها منافحاً عن الحنيفية السمحة كما بعث الله بها نبيه محمداً ﷺ وكما ورثها الصحابة والتابعون ، ولم يترك باباً من الأبواب إلا أتقنه حتى قال عنه أحد معاصريه : « قد ألان الله له العلوم ، كما ألان لداود الحديد ، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرأي والسمع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه من قبل ، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع منه ، ولا تكلم في علم من العلوم ، سواء أكان من

علوم الشرع أم من غيرها ، إلا فاق فيه أهله والمنسويين إليه ، وكان له اليد الطولى في حسن التصنيف .

٣ - توليه التدريس ومنهجه^(١) :

توفي أبوه وهو في الحادية والعشرين من عمره ، سنة ٦٨٢ هـ ، ويقول ابن كثير في (البداية والنهاية) إنه قد تولى الدراسة بعد وفاة أبيه بسنة ، فجلس مجلسه ، وحلّ محلّه ، وعلى ذلك يكون قد تولى التدريس وهو في الثانية والعشرين من عمره . فجلس نظيراً لأئمة الحديث الممتازين ، كابن دقيق العيد ، وغيرهم من أئمة ذلك العصر الذين كانوا يدرّسون في تلك المدارس وفي الجامع الكبير بدمشق .

وكان ينهج النهج الذي يعود بالإسلام إلى عهد الصحابة في عقائده وفروعه ، وإذا استيقن أن ما يقول هو ما كان عليه الصحابة دافع عنه بالحجة والبرهان ، وكل ما يواتيه عقله ودراساته من أدلة عقلية وتقنية .

ولكن ما كان في عصره من شيوع الشعوذة في الصوفية ، وتأويلاتهم الكثيرة ، والتقليد المطلق في العقائد وفهمها ، وفي الأحكام والتخريج عليها ، لا يمكن معه أن يكون من يدعو إلى التحرر من كل تقليد إلا كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه السلف

(١) المرجع السابق ٢٨ - ٣٥

الصالح ، لا يمكن أن يكون مقبول القول مسلّم التفكير ، بل لابد من منازل وخصومات .. وخصوصاً أن ابن تيمية لا يكتفي بما يلقي في دروسه على الخاصة في مدارس العلم ، وعلى العامة في الجامع الأموي الكبير ، بل صار مقصداً يسأل فيجيب بالكتاب فيذيع ويشتهر بين الناس ، ويتناقله الناسخون ، فيشيع مسجلاً في القرطاس ويتناقل في طول البلاد وعرضها .. والرسالة الحموية واحدة من تلك الإجابات الكثيرة المكتوبة ، فقد أرسل إليه أهل حماة يسألونه عن الصفات التي وصف الله بها نفسه من الاستواء وإضافة الكرسيّ لله سبحانه ... فأجابهم بما يخالف الأشاعرة وتصدى له المخالفون ، فشكوه إلى القاضي الحنفي جلال الدين وهو (أشعري) أو (ماتريدي) ... « وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي فلم يحضر .. فلما كان يوم الجمعة عمل الشيخ تقي الدين الميعاد بالجامع على عادته ، .. ثم اجتمع بالقاضي إمام الدين (قاضي الشافعية) يوم السبت ، واجتمع عنده جماعة الفضلاء ، وبحثوا في الحموية ، وناقشوه في أماكن فيها ، فأجاب بما أسكتهم بعد كلام كثير ، ثم ذهب الشيخ تقي الدين ، وقد تمهدت الأمور وسكنت الأحوال وكان القاضي إمام الدين معتقده حسناً ... » ^(١) .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٤ ، نقله عنه محمد أبو زهرة ٣٣ (مرجع سابق) .

٤ - ابن تيمية في ميدان السياسة والقتال :

كان تقي الدين أحمد بن تيمية ، مع عكوفه على الدرس والفحص والوعظ والإرشاد ، متصلاً بالحياة والمجتمع ، مريباً للشعب في المصنع والمتجر وفي المسجد ، في الجمع والجماعات ، يقيم الحسبة ، ويبلغ ولاية الأمر ما يوجب عليه دينه ونصحه وضميره أن يبلّغهم ...

وفي سنة ٦٩٩ هـ ، عندما صار جند التتار على أبواب دمشق ، وكانوا قد هزموا عساكر الناصر بن قلاوون الذين اجتازوا دمشق فارين إلى مصر ، فبات أهل دمشق في ذعر ، وفرّ أعيانها حتى صار البلد شاغراً من الحكام وكبار العلماء .. ، إلا عالماً واحداً هو أحمد بن تيمية ، الذي صمد أمام الفتن الداخلية ؛ والمجرمين الفارين من السجون ينهبون ويعيشون فساداً ؛ وأمام العدو المتربص على أبواب دمشق ، وهم التتار الذين (كانت تنخلع قلوب الناس في شمال أوربا إذا سمعوا بهول فظائعهم في شرق روسيا)^(١) ، فجمع من بقي من أعيان البلد واتفق معهم على ضبط الأمور ، وذهب على رأس وفد منهم ، والتقى بقازان ملك التتار وفاوضه على عدم دخول دمشق ، فاستجاب إلى حين ، وصار ابن تيمية رجل دمشق وحاكها فحطم هو وصفوة تلاميذه أواني الخمر وأغلقوا الحانات ورأى الناس حكم القرآن^(٢) ينفذ ،

(١) نقله عن جيبون : الشيخ عبد العزيز المراغي في كتابه ابن تيمية ٨ ، ونقله عنه

محمد أبو زهرة ٤٤

(٢) المرجع نفسه ١١/١٤ ، نقلاً عن محمد أبو زهرة (مرجع سابق) ٤١

وعهد الرسول يعود ، وخرج لقتال سكان الجبال الذين مالؤوا التتار
واتصلوا بهم لبيطشوا بالمسلمين ، فجاء رؤسائهم مسترشدين
مستهددين ، فوعظهم واستتابهم ، والتزموا برّد ما كانوا قد أخذوا من
مال الجيش ، وقرر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال ،
وأقطعت أراضيتهم وضياعهم ، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة
الجند^(١) ، ولا يلتزمون الملة ، ولا يدينون دين الحق ولا يحرمون
ما حرم الله ورسوله .

وفي الثاني من صفر سنة (٧٠٠ هـ) عندما همّ التتار بدخول
دمشق وهمّ الناس بالفرار جمع ابن تيمية الجموع ، وحضهم على القتال ،
ونهى عن الفرار ، وكتب الكتب في ذلك وأرسلها إلى الناس حتى
اطمأنوا ، وسافر إلى السلطان الناصر بمصر يستحثه على الدفاع عن
الشام ، وكان قد عاد بعسكره إلى القاهرة وانتشر الجند المجمع ، بعد أن
عزم وبدأ المسيرة للجهاد ، وقوّى ابن تيمية عزيمّة الأمراء وما زال
بهم ... حتى خرج السلطان بجنده إلى الشام ، وسبقهم ابن تيمية إلى
دمشق التي استولى الذعر على أهلها ، وناداهم والي المدينة بالخروج
للفرار ، فأوقفهم ابن تيمية ونظم صفوفهم ، وطمأن نفوسهم بنصر الله .

(١) البداية والنهاية ١٩/١٤ (نقله عنه محمد أبو زهرة مرجع سابق ٤١) .

وانظر أيضاً حياة شيخ الإسلام ابن تيمية للشيخ محمد بهجة البيطار ١٢٨٠ هـ /
١٩٦١ م / المكتب الإسلامي بدمشق .

ولكن التتار أجّلوا هجومهم على دمشق لما سمعوا وعلموا بتنظيم الجيوش الإسلامية ، حتى جاؤوا بجمعهم سنة ٧٠٢ هـ ، وعاد الخوف إلى القلوب وأرجف المرجفون ، فوقف ابن تيمية يشجع الناس بقلمه وعلمه ولسانه وجهاده ودرّب الناس ، حتى ابتدأت (موقعة شقحب) في رمضان سنة ٧٠٢ هـ ، وأمر الناس بالإفطار ليقبضوا على حرب عدوهم عملاً بقول النبي ﷺ للصحابه في غزوة الفتح « إنكم ملاقوا العدو والفطر أقوى لكم » وكان يدور على الأجناد يأكل أمامهم ليبين لهم أن إفطارهم أفضل ليقبضوا على القتال . وتقدم الجند بنفسه وقاتل قتالاً عظيماً ، فكان قدوة لهم في البأس والشجاعة والفروسية حتى نصرهم الله عصر اليوم الرابع من رمضان . وذهب التتار إلى غير رجعة .

يا وقعة المرج مرج الصفر افتخرتُ بك الوقائع في الآفاق والعصر

٥ - محنته وسجنه ووفاته :

أرقت مضاجع الحساد منزلة ابن تيمية التي نالها بسبب انتصاراته السياسية والعسكرية والعلمية ، وحظوته عند العامة والسلطان والأمراء ونائب السلطنة . وكان أعداؤه الذين خالفهم في العقيدة وخصومه المذهبيين ؛ والمشعوذون من الطرقيين الصوفيين يكيدون له في مصر ، بعد أن عجزوا أن ينالوا منه في بلاد الشام التي خلّصها الله على يديه من التتار ، ومن الفوضى ومن المخاوف والأراجيف ...

وعاد له درسه ، بل صار يستفتيه السلطان في كل أموره ، وفي شوال سنة ٧١٢ هـ ، قصد السلطان بجيوشه إلى دمشق للدفاع عنها عندما بلغه أن التتار يريدون مهاجمتها ، فاصطحب معه ابن تيمية ، ورجع التتار قبل أن يصل الشيخ إلى دمشق ، واستقر به المقام في دمشق ، وأدى به البحث والاجتهاد إلى الفتوى بعدم وقوع طلاق (الخالف بالطلاق) وهو لا يقصد إيقاع الطلاق ، مخالفاً بذلك إجماع الأئمة الأربعة ، فأثار عليه حفيظة جميع العلماء والقضاة من المتعصبين لمذاهبهم ، فحملوه على الامتناع عن هذه الفتوى بأمر من السلطان ، فامتنع زمناً قليلاً ثم عاد إلى الفتيا فيما يرى أنه الحق ، فعوتب في ذلك ، وأكد عليه المنع بكتاب من السلطان ، فلم يمتنع ، وعقد له مجلس بدار نائب السلطنة بدمشق ، وتكرر العتاب والمنع من الإفتاء فلم يمتنع ، فحبس خمسة أشهر ونيفاً (من ٢٢ رجب سنة ٧٢٠ إلى ١٠ من المحرم سنة ٧٢١ هـ) ثم خرج من محبسه مطلق الحرية ، يدرّس ويؤلف ويفتي بما يراه هو الحق حتى كانت سنة ٧٢٦ هـ حين تواطأ خصومه وحساده من منحرفي الصوفية والمتعصبين المذهبيين وعشاق المناصب والشهرة ممن أكل الحسد قلوبهم ، واجتمعت مصالحهم على تقييد حرية الشيخ ابن تيمية والكيد له ، فوجدوا له فتوى كان قد أفتاها منذ سبع عشرة سنة كان يمنع بها زيارة القبور ، وينع الصلاة عند قبر النبي ﷺ ، فحوروا وحرفوا معناها ومحتواها ، وشنعوا بها

عند ولاية الأمور ، وكاتبوا السلطان في مصر ، فجمع القضاة عنده ، فنظروا في الفتوى من غير حضور صاحبها ، فأمر السلطان بحبسها ، ونقل إلى قلعة دمشق فكث فيها يتلقى الأسئلة ويكتب الرسائل والمؤلفات فانتشرت آراؤه وعمُّ علمه كما لو كان طليقاً ، فسعى الواشون مرة أخرى فحرموا ابن تيمية من الكتب والخبر والقرطاس فصار أحياناً يكتب بالفحم المخصص للتدفئة ، وصار يقرأ القرآن ويختمه ويعيده حتى توفاه الله في العشرين من شوال سنة ٧٢٨ هـ رحمه الله وجزاه عن الأمة الإسلامية خير الجزاء .

٦ - اهتماماته التربوية :

ليس من السهل أن يكشف الباحث عن أساليب واهتمامات تربوية ، لشخصية فذة غيرت مجرى التاريخ وأوقفت السيل المغولي الجارف ، ونافحت عن العقيدة الإسلامية الصافية . فقد قضى ابن تيمية جلّ حياته في الكفاح والنضال ، وكان أسلوبه التربوي يتراءى من خلال كتبه ، وفي غمرة هذا الكفاح وفي توجيه الجماهير ، وإقناع الخصوم ، وتشجيع الملوك والأمراء على القتال ، ومناظرة أقرانه من العلماء ، وكان قدوة للناس في الحرب والسلم ، والالتزام بتطبيق علمه على حياته ، لذلك بدأنا باستنباط الأسس والمبادئ التربوية الإسلامية التي أرساها ، لينبني عليها هو ومن يأتي بعده نظاماً تربوياً مقتبساً من القرآن والسنة .

من أسس التربية عند ابن تيمية

تمهيد :

يعنى بالأسس في هذا المجال التربوي : منطلقات اعتقادية أو فكرية أو سلوكية ، يُبدأ بترسيخها ، لتنشئ عنها حياة سليمة ، وأساليب تربوية متكاملة بل نظام تربوي متكامل ، بكل جوانبه الاجتماعية ، والفكرية ، والروحية ، والعاطفية ، والنزوعية الغريزية و ... ، ويبنى هذا النظام على تلك الأسس بناءً متناسقاً قوياً ، موافقاً للفطرة الإنسانية كما سرى .

الأساس الأول : الأساس الديني :

يرى ابن تيمية أن أول أساس تربوي تقوم عليه التربية الإسلامية ، هو الإقرار بالشهادتين ، لأن الحياة تبنى على الخضوع لله ومحبة والالتزام باتباع رسوله . وفي هذا يقول :

« والمقصود هنا أن السلف والأئمة ، متفقون على أن أول ما يؤمر به العباد : (الشهادتان) . ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل

البلوغ ، لم يؤمر بتجديد ذلك عقب البلوغ »^(١) .

١ - ويفسر ابن تيمية هذا الأساس التربوي بقوله :

« والشهادة تتضمن الإقرار بالصانع تعالى وبرسوله ، لكن مجرد المعرفة بالصانع لا يصير به الرجل مؤمناً بأن يعلم أنه تعالى رب كل شيء ، حتى يشهد أن لا إله إلا الله »^(٢) .

ويوضح لنا ابن تيمية الفرق بين الإقرار (بأن الله رب كل شيء)
والشهادة بـ (أن لا إله إلا الله) في موضع آخر من كتبه فيقول : « ...
فإن المشركين كانوا يقولون أن الله خالقهم وهم يعبدون غيره »^(٣) ،
ويقول في موضع آخر : « ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده
لا شريك له ، كما خلق الجن والإنس لعبادته ، وبذلك أرسل رسله
وأُنزل كتبه »^(٤) ثم ساق الأدلة على ذلك ومنها قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾^(٥) ، ثم قال : « وهذا هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله

(١) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ١١/٨ (ط . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م) .

(٢) العبودية لابن تيمية ٤٩ الطبعة الخامسة ، ط المكتب الإسلامي بيروت .

(٤) الرسالة التدميرية لابن تيمية (تصحيح وتقديم محمد زهري النجار) ٩٥ - ٩٦ مطبعة الإمام بمصر .

(٥) الأنبياء ٢٥

ديناً غيره لامن الأولين ولا من الآخرين»^(١) وساق الأدلة على ذلك ثم قال : « فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده ، ... ، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده »^(٢) .

٢ - أما (الشهادة الثانية) : شهادة (أن محمداً رسول الله) فهي شرط صحة الشهادة الأولى : يقول ابن تيمية :
« ولا يصير مؤمناً بذلك حتى يشهد أن محمداً رسول الله »^(٣) .

ويشرح ابن تيمية المفهوم العملي التربوي لهذه (الشهادة) فيقول :

« الفصل الثاني : حق الرسول ﷺ ، فعلينا أن نؤمن به ونطيعه ونرضيه ونحبه ونسلم لحكمه وأمثال ذلك^(٤) ، قال تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾^(٥) ، وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾^(٦) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي

(٢و١) الرسالة التدمرية (مرجع سابق) ٩٦ - ٩٧

(٣) درء تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ١١/٨

(٤) الرسالة التدمرية (مرجع سابق) ١١٨

(٥) النساء ٨٠

(٦) التوبة ٦٢

سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴿١﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ ﴿٢﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ﴿٣﴾ وأمثال ذلك .

كما يشرح مهمة الرسل بقوله : « الحمد لله الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » ﴿٤﴾ .

ويخص رسولنا محمداً ﷺ بقوله : « وختمهم بمحمد ﷺ الذي أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وأيده بالسلطان النصير الجامع ، معنى العلم ، والقلم للهداية والحجة ، ومعنى القدرة والسيف للنصرة والتعزيز » ﴿٥﴾ .

٣ - الدلالة التربوية : يمتاز ابن تيمية بتنظيم تفكيره وبحسه ، وبأنه يحاول إحاطة الموضوع من مختلف جوانبه العملية والعلمية والعاطفية والعقلية والاجتماعية ، وبمراعاة ظروف المخاطبين وتفكيرهم وقدراتهم ، ويمكننا أن نستشف من عرضه لهذا الأساس : الدلالات التربوية التالية :

(١) التوبة ٢٤

(٢) النساء ٦٥

(٣) آل عمران ٢١

(٤و٥) ابن تيمية : السياسة الشرعية ٢ ، ط المطبعة الخيرية بمصر ١٣٢٢ هـ .

أ - قد يتبين الباحث ترتيب الأولويات وتقديمها على غيرها عند ابن تيمية فتراه يقول في شأن الشهادتين وأهميتهما وأنها مقدمتان على غيرها « أول ما يؤمر به العباد الشهادتان » وقد مر معنا أن ابن تيمية نقل اتفاق السلف والأئمة على هذا . ويقول أيضاً في هذا الصدد :
« ... ولهذا كانت الرسل صلوات الله عليهم وسلامه يأمرُونَ بالغايات المطلوبة من الإيمان بالله ورسوله وتقواه ، ويذكرون من طرق ذلك وأسبابه ما هو أقوى وأنفع »^(١) فقدم ذكر الغايات والأمر بها على الطرق والأسباب . وهذا مادفعنا إلى اعتبار النطق والإقرار بالشهادتين أول الأسس التربوية عنده .

ب - إلا أن ابن تيمية يراعي أحوال المتعلمين في تقديم الأولويات ، لكل فئة منهم ، بحسب قدراتها واستعدادها ، ويعيب على الباحثين الذين حصروا أساليب التعليم وترتيب الأولويات فيما يناسب مذهبهم ، تاركين مراعاة أحوال المتعلمين والفروق الفردية بينهم فيقول :

« وإذا كان الناس يتنوعون في الوجوب وترتيب الواجبات ، ويتنوعون في الحصول وترتيب الحاصلات ، لم يمكن أن يجعل

(١) درء تعارض العقل والنقل - لابن تيمية - ١١/٨ ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم .

ما يَخِصُّ بعضهم شاملاً لجميعهم ، وكثير من الغلط في هذا الباب إنما دخل من هذا الوجه : يصف أحدهم طريق طائفة ثم يجعله عاماً كلياً ، ومن لم يسلكه كان ضالاً عنده»^(١) .

وسنسطر الكلام عن هذا عند بحثنا في (مبدأ مراعاة الفروق الفردية) عند ابن تيمية .

ج - والإقرار بالشهادتين يعني عند ابن تيمية إقامة التريية العقلية والسلوكية على أساسين هما : الاستسلام والالتقياد لله تعالى في القول والعمل ، وإحسان الأعمال والاعتقادات ، أي جعلها موافقة لتعاليم القرآن والسنة ، وليبان هذا قال ابن تيمية :

« وإذا كانت جميع الحسنات لابد فيها من شيئين :

١ - أن يراد بها وجه الله .

٢ - وأن تكون موافقة للشريعة .

فهذا في الأقوال والأفعال ، في الكلم الطيب والعمل الصالح ، في الأمور العلمية والأمور العملية العبادية »^(٢) .

د - ويحلّل (الإسلام) إلى معنيين لهما دلالتها التربوية فيقول :

(١) درء تعارض العقل والنقل - لابن تيمية - ١١/٨ ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم .

(٢) ابن تيمية : الاستقامة ٢٩٧/٢ ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، تحقيق د . محمد رشاد سالم .

« والإسلام يجمع معنيين : أحدهما الاستسلام والالتقياد ، فلا تكون متكبراً ؛ والثاني الإخلاص فلا يكون مشركاً وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين »^(١) ثم ساق الأدلة^(٢) ، ومنها قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٣) .

وهكذا تبنى التربية عند ابن تيمية على أساس الاستسلام لله من غير تكبرٍ على أوامره أو نواهيه ، أو أيٍّ من الآداب والتشريعات القرآنية والنبوية ...

وعلى أساس الإخلاص من غير أن يقصد العبد المسلم بعمله غير مرضاة الله ، فلا يشرك في قصده مع الله أحداً ، ولا ينافق ولا يرائي .

هـ - ويمتاز ابن تيمية بفهمه للعقيدة فهماً حركياً ، يحرّض الوجدان والسلوك على الشعور الطيب والعمل الصالح ، وعلى تجنب المشاعر الخبيثة ، والأعمال الشريرة ، فالإيمان والإسلام عنده يدعوان إلى محبة الحق والبحث عنه والعمل به ، لذلك جعله أول ما يطالب به المكلف وتبنى عليه التربية والحياة والسلوك ، وفي هذا المعنى يقول :

(١) المرجع السابق ٣٠٢

(٢) البقرة ١١٢ ، ١٣٠ - ١٣٢ ، الأنعام ١٦١ - ١٦٢

(٣) الزمر ٢٩

« .. ولذلك :الفاجر بالعمل ، معه من الإيمان بقبح الفعل وبغضه ما هو داعٍ إلى فعل المأمور به ، أو داعٍ إلى تركه (معنى ترك القبح) ، لكن عارض ذلك من هواه مامنع كال طاعته ، بخلاف المكذب لرسول الله والكافر به » ^(١) ويقول في هذا المعنى أيضاً :

«..فَللرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ تأثير عظيم في معاونة الاعتقاد ، كما للاعتقاد تأثير عظيم في الفعل والترك ، فكل واحد من العلم والعمل ، من الاعتقاد والإرادة ، يتعاونان . فالعلم والاعتقاد يدعوان إلى العمل بموجبه » ^(٢) .

شمول الشهادتين التربوي :

وهكذا نجد ابن تيمية يشمل بهذا الأصل التربوي (الإقرار بالشهادتين) :

أ - التربية الوجدانية ، كما رأينا في السطور السابقة ، وفي أول استعراضنا لهذا الأساس ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ^(٣) .

(١) جامع الرسائل مجلد ١ ، ٢٤٥ ، تحقيق د . محمد رشاد سالم ، ط مطبعة المدني - القاهرة .

(٢) المرجع السابق ٢٣٨

(٣) آل عمران ٣١

٢ - التربية العملية السلوكية مرتبطة بالحياة الوجدانية ومنبثقة عنها كما أورد قوله تعالى : ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ وكما قال في الفقرة السابقة « .. معه من الإيعان بقبح الفعل وبغضه ما هو داعٍ إلى فعل المأمور به » وهو يريد أن يشمل بهذا كل مواقف الحياة كما قال في الرسالة التدمرية : « فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره ، وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت : بفعل ما أمر به في ذلك الوقت »^(١) ، وهذا من أرق أساليب التربية السلوكية : أن يكون لكل موقف أو أمره الربانية .

٣ - التربية الفكرية العلمية التي يجب أن يصحبها السلوك الموافق لها كما قال في الفقرة الآتية الذكر : « فالعلم والاعتقاد يدعوان إلى العمل بموجبه » وكما قال في تفسير الشهادتين (في أول بحثنا عن أسس التربية) « لكن مجرد المعرفة بالصانع لا يصير به الرجل مؤمناً ، بل ولا يصير مؤمناً بأن يعلم أنه تعالى رب كل شيء وحتى يشهد أن لا إله إلا الله » وهذا العلم والمعرفة لا بد من تحصيله حتى ينتج عنه العمل الذي يرضي رب العالمين ويحقق ثمرة الشهادتين .

وكما رأينا في الفقرة (ج) من هذه (الدلالة التربوية) إذ يشترط ابن تيمية لتحقيق الشهادتين موافقة الشريعة في كل الأعمال

(١) الرسالة التدمرية (مرجع سابق) ٩٨

والأقوال ، وهذه الموافقة لا تتم إلا بتربية عقلية راقية تقوم على فهم الشريعة ، وفهم كلياتها ، وتطبيق هذه الكليات على مواقف الحياة ، بقياس عقلي منطقي سليم ، وهذا من أرق أساليب التربية العقلية والثقيف والتحصيل العلمي ، الذي يتكرر في كثير من مواقف الحياة ، بل في معظمها عند المتسكين بالإسلام ، الذين ربّوا تربية إسلامية .

ثم إن هذا الشمول : شمول تحقيق الشهادتين لكل جوانب التربية ، مصحوب بتكامل وترابط وتناسق كما رأينا ، فكل تربية عقلية تعين على التربية الوجدانية والسلوكية وكل تربية وجدانية تدفع إلى تربية الإرادة والعمل والسلوك بل ترتبط بها ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ^(١) ، أما التربية الاجتماعية فسنفرد لها أساساً مستقلاً (الأساس الاجتماعي) وسنفرد للتربية العقلية أساساً (منهجياً) ، نبحث فيه عن منابع المعرفة عند ابن تيمية إن شاء الله .

والذي يجب تأكيده هنا أن الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يعني في هذا المجال التربوي : تربية الفكر على الاستسلام لله وحده والبحث في مظاهر عظمته ، وعلى تأمل آياته في الآفاق ، وفي أنفسنا ، وعلى فهم شريعته ، وتطبيقها على كل مواقف

(١) آل عمران ٣١

الحياة . وتربية الإرادة والسلوك والوجدان على محبة الله وتعظيمه وطاعته ، وتنظيم رغبات الإنسان وسلوكه وتعبئة طاقاته وتوجيهها نحو تحقيق مرضاة الله وإخلاص ذلك كله لله وحده .

الأساس الثاني : الأساس الاجتماعي .

أصبحت التربية الاجتماعية المدنية ، من أهم جوانب التربية في عصرنا ، وغدا علم الاجتماع ، وما تفرع عنه من علم الاجتماع التربوي رافداً هاماً من روافد التربية ، لذلك اعتبرنا أسس الاجتماع عند ابن تيمية أساساً هاماً من أسس التربية .

١ - التنظيم الاجتماعي :

يرى ابن تيمية الذي يمتاز بتفكيره الحضاري المنظم ، أن مجرد التجمع والتعايش لا يحقق الغرض من الاجتماع البشري ، بل إن التنظيم والقيادة والتربية على التناسخ ، والأمر والائتار ، ونحو ذلك ... أمور لا بد منها لتحقيق الغرض من هذا الاجتماع ، كما أن هذا التنظيم والأمر والائتار من طبيعة البشر ، لا ينفكون عنه إذ يقول : « وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض ، وإذا اجتمع اثنان فصاعداً ، فلا بد أن يكون بينهما ائثار بأمر ، وتناهي عن أمر . ولهذا

كان أقل الجماعة في الصلاة باثنين : أحدهما إمام والآخر مأموم ... »^(١)
وأما في الأمور العادية ، ففي السنن أنه ﷺ قال : « لا يحلّ لثلاثة ،
يكونون في سفر ، إلا أمروا عليهم » .

٢ - التزام منهج لتنظيم العلاقات الاجتماعية

ويرى ابن تيمية وجوب الالتزام بمنهج ربّاني يبني عليه التنظيم
الاجتماعي ، في التربية والحياة كلها . لاسيما أن هذا التنظيم الاجتماعي
طبيعة ملازمة للبشر ، كالحياة والحركة ، إذ يقول :

« وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم ، فمن لم يأمر
بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله ، وينه عن المنكر الذي نهى الله
عنه ورسوله ... فلا بد أن يأمر وينهى ، ويؤمر وينهى : إما بما
يصاد ذلك ، وإما بما يشترك فيه الحق الذي أنزله الله ، بالباطل
الذي لم ينزله الله »^(٢) ويتابع ابن تيمية تأكيد هذه الطبيعة التنظيمية
في الاجتماع البشري بقوله : « وهذا كما أن كل بشر هو حي متحرك
يارادته ، هام حارث »^(٣) .

٣ - أركان الاجتماع البشري

تمهيد : ما دام الاجتماع البشري لابد فيه من أمر ومأمور فأول

(٢،١) ابن تيمية : الاستقامة - تحقيق د . محمد رشاد سالم - ط . جامعة الإمام محمد بن
سعود الإسلامية ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م ، ٢٩٢ ، ٢٩٤

ما تبنى عليه التربية الاجتماعية : توطيد العلاقة بين الأمر والمأمور في كل مجتمع ، ويكون هذا بتربية كل من الطرفين على النصح للآخر وحسن التعاون معه والعمل بدستور يحكم بينهما وهذا المبدأ هو الذي بنى عليه ابن تيمية كتابه (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) حيث قال في مقدمته :

« وهذه رسالة مبنية على آية الأمراء في كتاب الله ^(١) وهي قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ^(٢) ثم قال في بيان أركان المجتمع الثلاثة : الأمراء والرعية والدستور .

« قال العلماء :

أ - نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور ، عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل .

(١) ابن تيمية : السياسة الشرعية ٢-٣ ط المطبعة الخيرية بمصر ١٣٢٢ هـ .

(٢) النساء ٥٨ - ٥٩

ب - ونزلت الثانية في الرعية من الجيوش وغيرهم : عليهم أن يطيعوا أولي الأمر الفاعلين لذلك في قسّمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك ، إلا أن يأمرؤا بمعصية الله ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ^(١) .

ج - ويقول ابن تيمية في بيان دستور المجتمع الإسلامي ووجوب احترامه والعمل به والتحاكم إليه « فإن تنازعوا في شيء ردّوه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ » ^(٢) .

وإليك بعض التفصيل لهذه الأركان وشروطها التربوية :

أ - الركن الأول : أولو الأمر : تربيتهم وشرط انتقائهم .
ويبين ابن تيمية (من هم أولو الأمر) فيقول : ^(٣)

« وأولو الأمر : أصحاب الأمر وذووه وهم الذين يأمرؤن الناس وينهؤنهم وهذا يشترك فيه أهل اليد والقدرة ، وأهل العلم والكلام ، فلهذا كان أولو الأمر صنفين : العلماء ، والأمراء ، فإذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس » ^(٣) وبهذا جمع ابن تيمية خير ما في

(٢٠١) ابن تيمية : السياسة الشرعية ٢ - ٣ ط المطبعة الخيرية بمصر ١٣٢٢ هـ

(٢) ابن تيمية : الاستقامة (مرجع سابق) ٢٩٥

النظريات السائدة : نظرية المدنية الفاضلة (أن يحكم الفلاسفة والعلماء) والنظريات المقابلة لها^(١) .

شروط أولي الأمر :

يرى ابن تيمية أن تولية أيّ من أولي الأمر ، يجب أن يقوم على انتقاء الأفضل والأصلح ، والأقوى على أداء الأمر الذي يؤلّون عليه ، بدءاً من الخليفة الذي^(٢) « يجب عليه البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار من الأمراء الذين هم نواب ذي السلطان ، والقضاة ، ومن أمراء الأجناد ومقدّمي العساكر الصغار والكبار ، وولاة الأموال من الوزراء والكتاب ، والسعاة على الخراج والصدقات .. وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده ، وينتهي ذلك إلى أئمة الصلاة والمؤذنين ، والمقرئين والمعلمين »^(٢) .

وهذا الانتقاء للأصلح والأقوى هو المقصود بالأمانة الواردة في (آية الأمراء) كما سماها ابن تيمية ، وفي قوله تعالى : هُوَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) ولكنه زاد عليها بوجوب التعاون والتكامل والتناصح بل خرج على العالم بنظرة جديدة تقوم على التنسيق بين هذين الطرفين من الحكام ، اللّذين يحكمان في وقت معاً ، وتمتاز بضرورة تربية الحكام وإصلاحهم وإعدادهم سواء كانوا علماء أم أمراء ، (فإذا صلحوا صلح الناس) .

(٢) ابن تيمية : السياسة الشرعية (مرجع سابق ٤،٣)

آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾
قال ابن تيمية بعد إيراد هذه الآية : « فإن الرجل لحبه لولده ، أو
لعتيقه ، قد يؤثره ببعض الولايات ، أو يعطيه مالا يستحقه ،
فيكون قد خان أمانته » ^(١) .

ثم استدل على ذلك بحديث « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة
فيل يا رسول الله وما إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله
فانتظر الساعة » ^(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة .

فالشرط الأول الذي يربى عليه ولاة الأمور والقياديون هو
الأمانة ، ومعناها هنا في التربية الاجتماعية أن يكون الوالي أميناً على
مصالح المجتمع وأمواله وخدماته فإذا قصر في شيء من ذلك عامداً وهو
يقدر على الأصح فهو غاش للمجتمع . قال ﷺ : « ما من راع
يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه
رائحة الجنة » ^(٣) رواه مسلم .

وأن يشعر بالمسؤولية أمام الله ، وأمام المجتمع الذي ولاه ؛ وهذا
من الأمانة قال النبي ﷺ : « كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته ،

(١) الأنفال : ٢٧

(٢) ابن تيمية : السياسة الشرعية (مرجع سابق ٣ ، ٤)

(٣) للرجع السابق هـ

(٤) السياسة الشرعية (مرجع سابق) هـ

فالإمام الذي على الناس راعٍ وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والولد راعٍ في مال أبيه ومسؤول عن رعيته ، والعبد راعٍ في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته « أخرجاه في الصحيحين ^(١) ، (فالأمانة ترجع إلى خشية الله) ^(٢) خوفاً من هذه المسؤولية .

الشرط الثاني - القوة : قال ابن تيمية : « فإن الولاية لها ركنان القوة والأمانة ^(٣) ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينُ ... ﴾ ^(٤) ، والقوة في كل ولاية بحسبها : فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخاطبة فيها ، وإلى القدرة على أنواع القتال ... والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل ، الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة ، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام » .

ثم يذكر ابن تيمية ثلاث خصال يجب أن يربى عليها جميع الموظفين والمسؤولين وكل راعٍ لِمَالٍ أو جماعة أو ولاية . وهي مشتركة بين ركني القوة والأمانة وهي :

(١) السياسة الشرعية (مرجع سابق) ٥

(٢) المرجع السابق ٧

(٣) المرجع السابق ٦

(٤) القصص ٢٦

١ - خشية الله والخوف من سؤاله عما استرعاهم من أمور المجتمع ومصلحه وأمواله .

٢ - وألا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً ، فيغيروا حكم الله أو العمل بأمره ، لهوى أو مالٍ أو مصلحة ...

٣ - وترك خشية الناس ، فلا يهاب الحاكم أحداً ، ولا يغير حكم الله ولا يجيد عن الحق خوفاً من أحد ، فالله أحق أن يخشاه ...

« وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله على كل حكم على الناس ^(١) ، يجمعها قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ^(٢) .

ب - الركن الثاني - الرعيّة : ويجب تربيّتهم على الطاعة ونصح الحكام ، والتعاون معهم . قال ابن تيمية في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ... ﴾ ^(٣) الآية ونزلت الآية الثانية في الرعيّة من الجيوش وغيرهم ، عليهم أن يطيعوا أولى الأمر الفاعلين لذلك ، (أي الحاكمين بالعدل وأداء الأمانة) ...

(١) المرجع السابق ٧

(٢) المائدة ٤٤

(٣) النساء ٥٩ ، وقد سبق ذكرها بتمامها .

وإن لم تفعل ولاية الأمور ذلك أُطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله ، لأن ذلك من طاعة الله ورسوله ، وأُذيت حقوقهم إليهم ، كما أمر الله ورسوله ^(١) ، ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ^(٢) .

كما يجب على كل من الركنين : الرعية وأولياء الأمور الالتزام بالدستور وهو القرآن الكريم والسنة ، واحترامه ، والعمل به والاحتكام إليه في كل شؤونهم وخلافاتهم وفي علاج جميع المشكلات والنوازل التي تنزل بهم ^(٣) .

وقد بيّن الله لنا وجوب التعاون مع ولاية الأمور وحذّرنا من الخروج عليهم . وهو دستور إلهي ، لم يضعه بشر حسب هواه ، فتطبيقه إرضاءً لرب العالمين ، وخوفاً من عذاب يوم الدين هو ما يجب أن يربى عليه كل من الرعية وأولياء الأمور كما بيّن لنا القرآن وجوب التراحم بين الرعية وولاية الأمور قال ابن تيمية : « وأُمّتُهُ وَسَطٌ ^(٤) قال تعالى فيهم : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ

(١) ابن تيمية : السياسة الشرعية (مرجع سابق) ٢ - ٣

(٢) المائدة ٢

(٣) نقلنا كلام ابن تيمية في هذا عندما أجلنا الأركان الثلاثة .

(٤) المرجع السابق ٨

رُكْعاً سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴿١﴾ ، وقال تعالى :
﴿ أُنْذِرْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٢﴾ .

فهذا الأساس التربوي يستلزم تربية الرعية على الطاعة والنصح
للحكام وعلى التراحم والتعاون .

جـ - الركن الثالث - العلاقة بين الولاة والرعية :

اختلف علماء الاجتماع والقانون حول منشأ العلاقة بين الحكام
والرعية ، وحول طبيعة هذه العلاقة وصلتها بالفطرة الإنسانية ،
وحول مدى تشبع الفطرة بأحد طرفي هذه العلاقة ؛ أي حول مدى
ميل الإنسان بفطرته إلى الحاكمية والأثرة ، أم إلى المحكومية
والإيثار ... وانتشار الخصومات بين الناس .

فزعم بعضهم أن فكرة (الحكم) نشأت من شدة البأس وكثرة
الأسلحة في أيدي البشر ، مما اضطر بعض المجتمعات إلى البحث عن
رجل قوي يجمع الأسلحة ويفصل بين المتخاصمين ويوجه أبناء القبيلة
في الحروب ، ويجمع كلمتهم ..

وزعم بعضهم أن الناس كانوا في مجبوحة من العيش ، وكان عدد
البشر قليلاً ، وخيرات الأرض كثيرة ، فلما كثر الناس وشحَّ الخير

(١) الفتح ٢٩

(٢) المائدة ٥٤

والثمر والماء ... اختصم الناس على تقاسم الخيرات ، وكثرت الحروب والدماء ، فرأوا أن يتنازلوا عن بعض سلطتهم أو ملكيتهم ، لفئة صالحة منهم ، وتعاقدوا معها على إدارة الأمور وتقسيم خيرات الأرض ونحو ذلك ، وسميت فيما بعد هذه النظرية (نظرية العقد الاجتماعي) ...

أما ابن تيمية ، فإن نظريته إلى هذه العلاقة ، تقوم على الطبيعة الإنسانية ، فهي تتصف بصفتين اجتماعيتين : الأولى الفطرة الاجتماعية التي عبر عنها بقوله : « وبنو آدم لا يعيشون إلا مجتمعين » ^(١) وقد ثبتت هذه الفطرة بالأدلة الوضعية اليوم عند علماء النفس وعلماء الاجتماع . والثانية فطرة الأمر والنهي ، والائتار والانتها ، وهذه أيضاً ثبتت لدى معظم علماء النفس الاجتماعي ، فكل إنسان عنده غريزة السيطرة وحب القيادة ، وغريزة الاتقياد ، لكن إحدى هاتين الغريزتين قد تبدو ظاهرة غالبية على الأخرى عند بعض الناس ، أو في بعض الظروف ...

فالعلاقة بين الرعية والولاة ظاهرة طبيعية ناشئة عن هذه الفطرة المزدوجة التي تظهر آثارها عند الاجتماع والاحتكاك ، كما قال ابن تيمية : « فإذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد أن يكون بينهما ائتار

(١) الاستقامة (مرجع سابق) ٢٩٢

بأمر وتنأه عن أمر»^(١) فظاهرة الولاية والحكم في المجتمع من لوازم الطبيعة البشرية كما قال ابن تيمية : « وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم^(٢) .. الخ ... » .

لكن ابن تيمية يعلّل (يفلسف) هذه الظاهرة ، بعد أن يقرر لزومها ، فيقول : « فإن الخلق عباد الله ، والولاية نواب الله على عباده ، وهم وكلاء العباد على نفوسهم ، بمنزلة أحد الشريكين من الآخر ، ففيهم معنى الولاية والوكالة ، ثم الولي والوكيل متى استناب في أموره رجلاً ، وترك من هو أصلح للتجارة أو العقار منه ، أو باع السلعة بثمن ، وهو يجد من يشتريها بخير من ذلك الثمن ، فقد خان صاحبه »^(٣) .

وهكذا يعلّل ابن تيمية الحاكمية ويفسرها بمعنيين ، أو علتين :

الأولى : أنها ولاية ونياية من الله على عباده . فهو الذي ولى الحكم وأنابهم بأن هيا لهم الظروف ويسر لهم سبل الرياسة ، وسيأسأهم يوم القيامة عن مدى رعايتهم لهذه الأمانة ، كما حكى ابن تيمية ، قصة معاوية مع أبي مسلم الخولاني^(٤) .

(١) الاستقامة (مرجع سابق) ٢٩٤ ، ٢٩٥

(٢) السياسة الشرعية ، مرجع سابق ٦

(٣) المرجع السابق ٥ وسنوردها في الصفحة التالية .

الثانية : أنها توكيل من الحكوميين على أنفسهم ، والتوكيل هنا شكل من أشكال (العقد الاجتماعي) وأصل لكل (حكم نيابي) في هذا العصر ، ولكل حكم (جمهوري) أو (ديمقراطي) أو (شعبي) .

لكن (توكيل الحكوميين للحكام) عند ابن تيمية وعلماء المسلمين ليس مطلقاً يضع أعناق الحكوميين بأيدي الحكام يفعلون بهم ما يشاؤون ، بل هو (توكيل مشروط) بشرطين هامين هما العمل بدستور الأمة الإسلامية وتحكيه عند الخلاف وهو (القرآن والسنة) أي العمل بطاعة الله ورسوله . كما رأينا في قول ابن تيمية : « عليهم أن يطيعوا أولي الأمر ... إلا أن يأمرُوا بمعصية الله ، فإذا أمرُوا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فإن تنازعوا في شيء ردّوه إلى كتاب الله وسنة رسوله »^(١) و (البيعة) هي الصورة العملية السائدة في كل عهود الخلافة الإسلامية لتحقيق هذا (التوكيل) ، و (رقابة الرعية) على الحكام قائمة واضحة في أشهر عهود الخلافة الإسلامية ، وقد حكى لنا ابن تيمية نموذجاً منها فقال : « دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية بن أبي سفيان فقال : السلام عليك أيها الأجير : فقالوا : قل السلام عليك أيها الأمير ! فقال : السلام عليك أيها الأجير ! فقالوا : قل أيها الأمير ! فقال : السلام عليك أيها

(١) المرجع السابق ٢ - ٣

الأجير ! فقال معاوية : دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول . فقال : إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها . فإن أنت هنأت جرباها ، وداويت مرضاها ، وحبست أولاها على أخراها وفأك سيدها أجرك . وإن أنت لم تهناً جرباها ، ولم تداو مرضاها ، ولم تحبس أولاها على أخراها ، عاقبك سيدها «^(١) ، فهذه الرقابة نابعة من الأعماق لأنها منبثقة عن الإيمان بالله ..

الخلاصة والدلالة التربوية :

نستنبط من كل ما بسطنا عن نظرية ابن تيمية في الاجتماع أنفاً :
النتائج التربوية التالية :

١ - تبنى التربية الاجتماعية في الإسلام على أن الاجتماع غريزة فطر الله عليها جميع البشر .

٢ - وأن من لوازم كل اجتماع أن يبنى على الأمر والائتار فكل فرد من أفراد المجتمع لابد له من الأمر والائتار ، فهو أمر تارة ، ومأمور تارة أخرى .

٣ - وأن هذا الأمر والائتار لابد له من ضابط ، وحكم ، فيجب تربية جميع الأجيال الإسلامية على الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) ابن تيمية - السياسة الشرعية مرجع سابق ٥

المنكر ، وعلى الطاعة لكل أمر معروف أو نهي عن منكر ، وعلى أن يحتكموا إلى كتاب الله وسنة رسوله في ذلك كله .

٤ - وأن العلاقة بين كل أفراد المجتمع المسلم تبنى على التعاون على البر والتقوى ، وعلى التراحم بينهم ، والاعتزاز بدين الله وبالأخوة الإسلامية .

٥ - وأن تنظيم هذه العلاقة وسائر شؤون المجتمع لا بد له من حاكم ومحكوم ، فالحكام هم العلماء والأمراء ، يجب أن يتصفوا بالأمانة والقوة . والمحكومون هم الرعية ، يجب أن يتصفوا بالطاعة والتراحم والتعاون .

لكن لما كان جميع أجيال الأمة الإسلامية معرضين لمواقف يكونون فيها تارة حكاماً ولادة ، وتارة طائعين مأمورين فيجب تربية هذه الأجيال على الصفات والأمور التالية :

أ - القوة ولها معنيان : الأول أن نربي الأجيال (على شجاعة القلب) والجرأة في الحق ، وعدم الخوف من الناس عند إحقاق الحق وأداء الأمانات ، وكل ذلك يرجع إلى الثقة بالله . وقوة الإيمان به ...

والمعنى الثاني : القدرة على أنواع القتال إن كان الناشئ يعد ليكون مقاتلاً ، أو على أمور الحساب إن كان يعد للأمور المالية ، أو

على التجارة أو الخطابة وهلم جراً ... وهذا يعني تكوين الخبرات
الضرورية عند أجيال الأمة كل فئة بحسبها .

ب - الأمانة على مصالح المجتمع وخدماته وأمواله ، وتربى على
أساس الخوف من الله واليوم الآخر ، والشعور بالمسؤولية أمام الله
وأمام الأمة . وعدم الخوف من أحد عند تحقيق أي مصلحة اجتماعية
للأمة ، وألا يبيع المصلحة الاجتماعية أو تحقيق أوامر الله الاجتماعية في
جميع المعاملات بأي ثمن من المال أو الإغراء ...

الأساس الثالث - الأساس المنهجيّ الفكري :

تمهيد : يرى ابن تيمية ضرورة الاتفاق على طرق الوصول إلى
المعرفة ، والبرهان على صحة كل طريق « فطرق المعارف متنوعة في
نفسها ، والمعرفة بالله أعظم المعارف ، وطرقها أوسع وأعظم من
غيرها ، فمن حصرها في طريق معيّن بغير دليل لم يقبل منه »^(١) ،
لذلك جعل البحث في هذه الطرق مقدمة للبحث والنقاش في
الإلهيات ولما كانت (طرق المعرفة بالله أوسع وأعظم من غيرها) كما
قال ، أجزنا لأنفسنا أن نعتبرها نموذجاً لطرق المعرفة عند ابن تيمية ،
تمثل رأيه في المنهج الفكري الذي يمكن بناء التربية الفكرية على
أساسه .

(١) دره تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ٤٧/٨

والمعرفة تبنى على مصادرها ومنابعها ، فإذا صحت صحت المعرفة ، وإذا فسدت فسدت المعرفة ، أما أساليب الوصول إلى المعرفة فتندرج مع المصادر ، وسيأتي بحثها تبعاً لبعض هذه المصادر ، وبعضها على أنه مصدر مستقل ، كالرأي أو القياس ، أو الأدلة العقلية والخبر ...

وعلى هذا يمكننا أن نصنف مصادر المعرفة عند ابن تيمية كما يلي :

مصادر المعرفة عند ابن تيمية وطرقها

المصدر الأول : ما جاءت به الرسل عن الله

يعتبر ابن تيمية هذا المصدر أساساً ومقياساً لكل المصادر الأخرى فكل ما وافقه أو لم يخالفه فهو صحيح ، وكل ما خالفه كان باطلاً ، لاسيما إذا كانت المعرفة تتعلق بالمغيبات ، أو الفرائض والعبادات والمعاملات والفقهيات ... لذلك يقول :

« ففي هذه الأمور العلمية الكلامية يحتاج الخبر بها أن يكون ما يخبر به عن الله واليوم الآخر ، وما كان وما يكون حقاً وصواباً ، وما يؤمر به وما يُنهى عنه - كما جاءت به الرسل عن الله - فهذا هو الصواب الموافق للسنة والشريعة ، المتبع لكتاب الله وسنة رسوله ... وما لم يكن كذلك كان من الباطل والبدع المضلة ، والجهل ، وإن كان يسميه من يسميه علوماً ومعقولات ، وعبادات ومجاهدات ، وأذواقاً

ومقامات » ^(١) ويؤيد ابن تيمية رأيه هذا بالبرهان على أن صحة أي علم أو اعتقاد عند صاحبه لا يعني صحته مطلقاً ، فلا يصح إطلاقاً إلا ما جاءت به الرسل عن الله ^(٢) ثم يلخص ذلك بقوله :

« وكذلك : كون العلم ضرورياً ، ونظرياً ، والاعتقاد قطعياً ، وظنياً أمور نسبية : فقد يكون الشيء قطعياً عند شخص وفي حال ، وهو عند آخر ، وفي حال أخرى مجهول ، فضلاً عن أن يكون مظنوناً ... وقد يكون الشيء ضرورياً لشخص ، وفي حال ، ونظرياً لشخص آخر وفي حال أخرى .. وأما ما أخبر به الرسول ، فإنه حق في نفسه ، لا يختلف باختلاف عقائد الناس وأحوالهم ، فهو الحق الذي لا يقبل النقيض ... » ^(٣) .

بعد هذا يجدر بنا أن نبين شمول هذا (المصدر) لفروع الدين وأصوله وبراهينه وأدلتة العقلية ، كما ذلك بين ابن تيمية في رسالة قال في مقدمتها : « فصل في أن رسول الله ﷺ بين جميع الدين : أصوله وفروعه ، باطنه وظاهره ، علمه وعمله » ^(٤) .

(١) ابن تيمية : الاستقامة (مرجع سابق) ٢٩٩/٢

(٢) الاستقامة : (مرجع سابق) ٢٩٩/٢

(٣) درء تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ٣٠٤/٣

(٤) ابن تيمية : مجموعة الرسائل الكبرى ١٨٠/١ (الرسالة الثانية معارج الوصول)

ط . المطبعة الشرفية ، ١٣٢٤ هـ ، حسين أفندي شرف .

ثم قال رداً على من زعم خلاف ذلك « والمتكلمون من الجهميّة والمعتزلة والأشعرية ونحوهم ممن سلك في إثبات الصانع طريقة الأعراض ، يقولون : إن الصحابة لم يبينوا أصول الدين ، بل ولا الرسول ، إما لشغلهم بالجهاد ، أو لغير ذلك ، وقد بسط الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع ، ويّين أن أصول الدين الحق الذي أنزل الله به كتابه ، وأرسل به رسوله ، وهي الأدلة والبراهين اليقينيّة ، والآيات الدالة على ذلك قد يّينها الرسول أحسن بيان ، وأنه دلّ الناس وهداهم إلى الأدلة العقلية والبراهين اليقينيّة ، التي بها يعلمون المطالب الإلهية وبها يعلمون إثبات ربوبية الله ووحدانيته ، وصفاته ، وصدق رسوله والمعاد وغير ذلك » ^(١) . ثم قال في شمول هذا المصدر للفروع والفقه وكل أمور الدين :

(فصل) وأما العمليات ، وما يسميه ناس : الفروع والشرع والفقه ، فهذا يّينه الرسول ﷺ أحسن بيان ، فما شيء مما أمر الله به ، أو نهى عنه ، أو حلّله ، أو حرّمه ، إلّا بيّن ذلك ^(٢) . وقد قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ^(٣) ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً

(١) المرجع السابق ١٨٣

(٢) المرجع السابق ١٩٤

(٣) المائدة ٣

يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ .

ثم قال مبيناً شمول هذا المصدر للمباحات والمحرمات ، وكونه
حَكَمًا يَرْجَعُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْخِلَافِ ؛ وَأَنَّ الرَّجُوعَ إِلَيْهِ عِنْدَ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ
طَرِيقِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ :

« قَدْ بَيَّنَّ لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعَ مَا يَتَقَوَّنَهُ ^(١) ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ
لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ ^(٢) ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ
تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ^(٣) ، وَهُوَ الرَّدُّ إِلَى
كِتَابِ اللَّهِ أَوْ إِلَى سُنَّةِ الرَّسُولِ بَعْدَ مَوْتِهِ ... فَأَيُّ شَيْءٍ تَنَازَعُوا فِيهِ ،
رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بَيَانُ اللَّهِ وَالرَّسُولِ فَاصِلًا لِلتَّنَازُعِ ،
لَمْ يُؤْمَرُوا بِالرَّدِّ إِلَيْهِ » .

ثم قال في بيان وظيفة الرسول التربوية ووظائف السنة في جميع
جوانب المعرفة :

« وَالرَّسُولُ أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ

(١) يوسف ١١١

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى (مرجع سابق) ١٩٤/١ - ١٩٥

(٣) الأنعام ١١٩

(٤) النساء ٥٩

موضع ، وقد علّم أمته الكتاب والحكمة ، وكان يذكر في بيته الكتاب والحكمة ، وأمر أزواج نبيه بذكر ذلك ^(١) فقال : ﴿ وَادْكُرُنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ ^(٢) ، فأيات الله هي القرآن ... ، والحكمة : قال غير واحد من السلف : هي السنة .. فهي تتضمن التمييز بين المأمور والمحظور ، والحق والباطل ، وتعليم العلم بالحق دون الباطل ، وهذه السنة التي فُرق بها بين الحق والباطل ، وبين الأعمال الحسنة من القبيحة والخير من الشر .

منهج ابن تيمية في الرجوع إلى الكتاب والسنة :

ليس كل من ادعى اعتماد الكتاب والسنة في فهم أمرٍ أو اقتباس حكم أو دعم رأيه ومذهبه في إثبات حقيقة من حقائق العقيدة موثقاً ولا مسلماً برأيه ، حتى يوافق في اقتباسه أو استشهاده المنهج العلمي المسلّم به في هذا المجال . فقد يخالف هذين المصدرين وهو يظن أنه يوافقهما .

١ - ذلك أن فهم القرآن الكريم والسنة يأتي بالدرجة الأولى عن

طريق النبي ﷺ ، قال ابن تيمية :

« فصل : وما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث : إذا عرف

(١) مجموعة الرسائل الكبرى ١٩٥/١ (مرجع سابق) .

(٢) الأحزاب ٣٤

تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يُحتَجْ في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ولهذا قال الفقهاء : الأسماء ثلاثة أنواع : نوع يعرف حدّه بالشرع كالصلاة والزكاة ، ونوع يعرف حدّه باللغة كالشمس والقمر ، ونوع يعرف حدّه بالعرف^(١) ، كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾^(٢) .

فأما ما يعرف حده بالشرع (فتفسيره من جهة النبي ﷺ) ولا يجوز معارضته بقياس أو رأي أو معقول كما اتفق على ذلك الصحابة والتابعون فقد « كان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن ، لا برأيه ، ولا بذوقه ، ولا بمعقوله ، ولا بقياسه ، ولا وجده »^(٣) . فكان القرآن هو الإمام يقتدى به «^(٤) ، فإما أن يفسّر القرآن بالقرآن والسنة ، وإما بالسنة ، فإذا توافرا لم يقدّم عليهما شيء .

٢ - صحة السند وفهم النص :

لِكَيْ نَعْتَمِدَ أَي نَص وَنَفْسِرَهُ بِنَص آخِر يَجِبُ التَّأَكُّدُ مِنْ صَحَّةِ كُلِّ

(١ و٢) مجموعة الرسائل الكبرى (مرجع سابق) ١٩/١ (رسالة الفرقان) .

(٢) النساء ١٩

(٤) المرجع السابق ٢٠

من النصّين ، والتحقّق من نسبته إلى قائله ، فكثير من المتكلمين يحتاجون بأحاديث لاتصح عن رسول الله ﷺ كما قال عنهم ابن تيمية : « .. فإن كان ممن يعتقد ما قاله ، وله فيه حجة يستدل بها ، كان غايته الظنّ الذي لا يغني عن الحق شيئاً ، كاحتجاجهم بقياس فاسد أو نقل كاذب » ^(١) ولكي لا يكون (النقل كاذباً) ينبغي التأكد من صحة سند الحديث أي صدق رواته وتوثيقهم وحفظهم وإدراك كل منهم لمن روى عنه ونحو ذلك ، مما هو معروف في علم الحديث الذي كانت قواعده منتشرة معروفة ، فأغنى انتشارها واشتهارها عن ذكرها وتصنيفها في كتب ابن تيمية . وإنما يشير - إن احتاج الأمر - إلى اسم أحد رواة حديث ضعيف مكذوب ، فيبين علته ويمضي ، لأنه أمر مسلم به ، ومنصوص عليه في مراجعه من كتب الجرح والتعديل ، وتراجم الرجال ... ويلخص ابن تيمية هذا الذي ذكرناه كله بعبارة واحدة : « وإن تمسك المبطل بحجج سمعية ، فإمّا أن تكون كذباً على الرسول ، أو تكون غير دالة على ما احتج بها أهل الباطل . فالمنع - أي المنع من صحة الاستدلال - إمّا في الإسناد - أي سند الحديث ، كما قدّمنا - وإمّا في المتن (أي في فهم متن الحديث كما سنذكر) » ^(٢) .

(١) مجموعة الرسائل الكبرى (مرجع سابق) ، رسالة الفرقان ٥١/١

(٢) المرجع السابق ٥١

وهكذا يقوم منهج علماء الإسلام في مجوئهم على أمرين : صحة السند ، وفهم النص ، وهذا ما قصده ابن تيمية بكلامه السابق .

٣ - الفهم اللغوي للنص :

إذا لم يرد في النص تفسير من القرآن ولا من النبي صلى الله عليه وسلم ، فينبغي الرجوع إلى قواعد وأصول تبين متى يجب الأخذ بظاهر المعنى اللغوي ، ومتى يجوز صرف النص عن الظاهر إلى المجاز ، وخلاصة هذه القواعد عند ابن تيمية :

أن الأصل فهم النصوص على ظاهرها^(١) ف (إذا وصف الله نفسه بصفة ، أو وصفه بها رسوله ... فصرفها عن ظاهرها اللائق بجلاله سبحانه وتعالى ، وحقيقتها المفهومة منها ، إلى باطن يخالف الظاهر ، ومجاز يخالف الحقيقة لابد فيه من أربعة أشياء : أحدها : أن ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازي لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاؤوا بلسان العرب)^(٢) فإن لم يكن من اللغة العربية استعمال ذلك اللفظ بالمعنى المجازي (فلا يجوز أن يراد منه خلاف لسان العرب) .

الشرط الثاني (أن يكون معه دليل يوجب صرفه عن حقيقته إلى مجازه وإلا فإذا كان يستعمل في معنى بطريق الحقيقة ، وفي معنى

(١) أي على معناها اللغوي الظاهر .

(٢) الرسالة المدنية (مرجع سابق) ١٣ - ١٤

بطريق المجاز ، لم يحز حمله على المجاز بغير دليل يوجب الصرف بإجماع العقلاء) .

الشرط الثالث (أنه لا بد من أن يَسْلَمَ ذلك الدليل الصارف عن معارض ، وإلا فإذا قام دليل قرآني أو إيماني يبين أن الحقيقة مرادة امتنع تركها) .

ثم يؤكد معنى الشرطين الثاني والثالث بشرط رابع وهو ليس جديداً عليهما : « الرابع : أن الرسول ﷺ إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره و ضد حقيقته ، فلا بد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وإنما أراد مجازه ، سواء عيّنه أو لم يعيّنه » ^(١) .

ويطبق هذه الشروط على صفة يجعلها أنموذجاً وهي (صفة اليد) ويسوق الآيات التي وردت فيها نسبة اليد واليدين والأيدي لله تعالى فيقول في عدم انطباق الشرط الأول : « إن لفظ اليدين بصيغة التثنية لم يُستعمل في النعمة ولا في القدرة » ^(٢) فلا يجوز صرف المعنى من الحقيقة إلى المجاز ، ويشرح ذلك شرحاً وافياً ... وفي عدم انطباق الشرط الثاني يقول لمن يناظره ، أوللقارئ : « هل بلغك أن في كتاب الله أو في سنة رسوله أو عن أحد من أئمة المسلمين أنهم قالوا : المراد باليد خلاف ظاهره ، والظاهر غير مراد ؟ وهل في كتاب الله

(١) الرسالة للدنية (مرجع سابق) ١٣ - ١٤

(٢) المرجع السابق ١٩

آية تدل على انتفاء صفة اليد دلالة ظاهرة أو دلالة خفية؟ ^(١) فإن أقصى ما يذكره المتكلم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ^(٤) وهؤلاء الآيات إنما يدلُّنَّ على انتفاء التشبيه والتجسيم . أما انتفاء يد تليق بجلاله ، فليس في الكلام ما يدل عليه بوجه من الوجوه . وكذلك هل في العقل ما يدل دلالة ظاهرة أن الباري لا يد له ، ألبتة ، تليق بجلاله ولا تناسب المحدثات ؟

وفي عدم انطباق الشرط الرابع يقول : « فهل يجوز أن يُملأ الكتاب والسنة من ذكر اليد ، وأن الله خلق بيديه ، وأن يديه مبسوطتان ، وأن الملك بيده ، وفي الحديث ما لا يحصى ، ثم إن رسول الله ﷺ وأولي الأمر من بعده لا يبيّنون للناس أن هذا الكلام لا يراد به حقيقته ولا ظاهره ؟ » ^(٥) .

فإذا لم تنطبق الشروط جميعها - ويكفي ألا ينطبق شرط واحد - فلا يجوز أن نصرف النصوص الواردة في (نسبة اليد لله

(١) المرجع السابق ٢٢

(٢) الإخلاص ١

(٣) الشورى ١١

(٤) مريم ٦٥

(٥) المرجع السابق ٢٣

تعالى) عن ظاهرها اللغوي ومعناها الحقيقي ، بل ثبت كما أثبت السلف أن لله يداً تليق بجلاله ، ليست كأيدي المخلوقين .

وعلى هذا المثال تقاس جميع النصوص المتشابهة ، إذا احتيج إلى عرضها على هذا المنهج اللغوي .

٤ - القياس على النص :

إذا كان معنى الإسلام الاتقياد والطاعة والتطبيق العملي للنصوص القرآنية والنبوية في سلوك الإنسان وحياته ، وفي علاقاته بمجتمعه ، ومعنى الشهادتين إخلاص هذه الطاعة وهذا الاتقياد لله وحده عن طريق اتباع رسوله ، فإن (القياس) أمر ضروري لكل مسلم ، لأن مواقف الحياة المتجددة تحتاج إلى معرفة حكم الله في كل موقف ، وكيف يطبق هذا الحكم على هذا الموقف وهذا لا يتم إلا بالقياس .

ويعرّف ابن تيمية القياس بإيجاز شديد عندما يقول :

« فالقياس الصحيح هو الذي وردت به الشريعة : وهو الجمع بين المتماثلين ، والفرق بين المختلفين . الأول قياس الطرد ، والثاني قياس العكس ، وهو من العدل الذي بعث الله به رسوله »^(١) .

(١) مجموعة الرسائل الكبرى (مرجع سابق) ٢١٧/٢ (رسالة في القياس) .

ويكون الجمع بين المتماثلين عن طريق اطراد العلة وانطباقها على المتماثلين وهما النص الأصلي ، والحالة أو الواقعة الماثلة له والتي يراد تطبيق النص عليها ، يدل على هذا قول ابن تيمية شارحاً تعريفه السابق : « مثل أن تكون العلة التي عُلّق بها الحكم في الأصل موجودة في الفرع من غير معارض في الفرع يمنع حكمها »^(١) .

ويحتاج القياس إلى تفكير سليم حاذق ، ليستطيع الذي يقيس أن يكتشف العلة التي في كلّ من الأصل والفرع ، فإن كانت واحدة كان القياس صحيحاً ، وإلا كان القياس فاسداً ، وليس كل الناس يستطيعون ، في كل الأمور ، اكتشاف هذه العلة ، أو اكتشاف النوع أو الجنس الذي ينتهي إليه (الفرع) أي الأمر الذي يراد معرفة حكمه ، وإلى أي أصل من أصول الشرع الواردة في النصوص يمكن إرجاعه وانتاؤه ، وهذا ما عناه ابن نبيه بقوله :

« وحيث جاءت الشريعة باختصاص بعض الأنواع بحكم يفارق به نظائره ، فلا بد أن يختص ذلك النوع بوصف يختصه بالحكم ، ويمنع مساواته لغيره ، لكن الوصف الذي اختص به قد يظهر لبعض الناس وقد لا يظهر . وليس من شرط القياس الصحيح المعتدل أن يعلم صحته كل أحد »^(٢) .

(١) مجموعة الرسائل الكبرى (مرجع سابق) ٢١٧/٢ (رسالة في القياس) .

(٢) المرجع السابق ٢١٨

فالبراعة في إجراء القياس ، في الفروع المتشابهة ، تكمن في معرفة الصفة التي يختص بها الفرع المبحوث عن حكمه ، ويتميز بها عن أشباهه . فإذا خفيت هذه الصفة على أحد أو التبتت بغيرها ، فخرجت بذلك عن جنسها أو نوعها - في نظره - ظن أن حكم الشريعة فيها جاء خلافاً للقياس . ولهذا قال ابن تيمية :

« فمن رأى شيئاً من الشريعة مخالفاً للقياس ، فإنما هو مخالف للقياس الفاسد الذي انعقد في نفسه ، ليس مخالفاً للقياس الصحيح الثابت في نفس الأمر »^(١) . ثم ضرب ابن تيمية أمثلة على ذلك اخترنا منها المثال التالي :

« فصل : ومن قال : (القرض خلاف القياس) ، قال : (لأنه بيع ربوي بجنسه من غير قبض) وهذا غلط »^(٢) . فإن القرض من جنس التبرع بالمنافع ، كالعارية ، ولهذا سماه النبي ﷺ (منيحة^(٣)) فقال : (أو منيحة ذهب ، أو منيحة ورق) ، وباب العارية أصله أن يعطيه أصل المال لينتفع بها يستخلف منه ثم يعيده إليه ...

(١) المرجع السابق ٢١٨

(٢) المرجع السابق ٢٢٤

(٣) في مسند أحمد ٤٦٣/١ عن أبي الأحوص عن عبد الله عن النبي ﷺ : « أتدرون أي الصدقة أفضل ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : المنيحة : أن يمنح أحداً أخاه الدرهم أو ظهر الدابة أو لبن الشاة أو لبن البقرة » .

والمقرض يقرضه ما يقرضه لينتفع به ثم يعيده له بمثله ، فإن إعادة المثل تقوم مقام إعادة العين ، ولهذا نهى أن يشترط زيادة على المثل » .

فالحطأ في قياس من زعم أن القرض كالربا ، ناشئ عن أنه لم يعرف الصفة المميزة للقرض ، وهي قصد التيسير على أخيه المسلم ، وإعارته مالاً ينتفع به دون أن يكون للمقرض غرض في الانتفاع من وراء الإقراض ، بينما البائع لا يبيع عادة إلا بقصد الربح ، أو درء الخسارة أو منفعة يعلمها ويقصدها . لذلك قال ابن تيمية :

« وليس هذا من باب البيع ، فإن عاقلاً لا يبيع درهماً بمثله من كل وجه إلى أجل » ^(١) .

الخلاصة والدلالة التربوية : يمكننا أن نلخص المصدر الأول للمعرفة عند ابن تيمية كما يلي :

١ - أن ما جاءت به الرسل عن الله ، وثبت بالنقل الصحيح هو المصدر الأساسي للمعرفة الصحيحة ، وهو صحيح عند كل من يؤمن بالله وكتبه ورسله ، وصحته ثابتة مطلقة . أما أقوال الناس وإلهاماتهم واستدلانهم فكلها قابلة للصحة والخطأ . لذلك ينبغي أن تربى

(١) مجموعة الرسائل الكبرى (مرجع سابق) ٢٢٤/٢

الأجيال على ربط المعرفة الصحيحة بهذا المصدر ، وهو محصور منذ زمن النبي ﷺ بالقرآن والسنة .

٢ - أن هذا المصدر شمل كل ما تحتاج الأمة إلى معرفته في دينها وتعاملها من المباحات والمحرمات والواجبات والمستحبات و ...

٣ - كذلك يشمل هذا المصدر نماذج الأصول الفكرية من قياس وبرهان واستدلال ، كما يشمل كل الفروع ، فينبغي أن نستقي منه منهجنا في الاستدلال والتفكير الصحيح ، وأن نربي عقول أجيالنا على الأسلوب القرآني في البرهان ، وأن نستنبط تشريعنا التربوي من القرآن والسنة .

٤ - يجب أن نربي أجيالنا على اتباع الرسول ﷺ والافتداء بسنته فهو المربي وهو القدوة ، وسنته تضمنت تعليم الحق بالأسلوب الحق ، دون الباطل ، فأساليبنا التربوية تبع لأساليب الرسول الأعظم ﷺ .

٥ - لا تتم الاستفادة من هذا المصدر ، ولا تحصل المعرفة الحق إلا بتوفر الأمور الآتية :

أ - البحث أولاً عن تفسير القرآن والحديث من جهة النبي ﷺ وصحبه والتابعين فإن وجد فلا حاجة إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ، ولا يجوز معارضته بقياس أو رأي أو معقول .

ب - التأكد من صحة السند أي صحة النقل عن النبي ﷺ
ولذلك يجب تربية الأجيال الإسلامية على التحرز من الأخذ
بالأحاديث الموضوعة والضعيفة ، وعلى الأمانة العلمية ، والتأكد عند
نسبة الحقائق إلى قائلها ، وخاصة إلى النبي ﷺ .

ج - تربية الناشئين على الأخذ بصريح النصوص دون اللجوء
إلى الغموض والألغاز ، والتفاسير الشاذة ، والبعد عن كليات الشريعة
في فهم هذه النصوص إلا إذا ثبت بالدليل والاستعمال اللغوي أن ظاهر
النص غير مراد ، فيلجأ حينئذ إلى الفهم المجازي ، ضمن شروط وحدود
سبق ذكرها .

د - تربية عقول الناشئين على القياس الصحيح وفق كليات
الشريعة ومقاييسها ومفاهيمها ، وعلى اكتشاف العلاقة بين الفروع
والأصول ، وعلى استخدام القياس لتحقيق أوامر الله في سلوكنا
وعلاقاتنا الاجتماعية كلها ...

هـ - كل حكم ورد صريحاً في النصوص الثابتة عن
رسول الله ﷺ ، أو الواضحة في القرآن لا يمكن أن يخالف قياساً
صحيحاً ، ولا استدلالاً عقلياً سليماً ولا فطرة سليمة ، ولا إلهاماً صدر
عن صفاء وتقوى من الله . وكل ما خالف النص الصحيح من هذه
الأمر فهو خاطئ أو فاسد ، ربما خفي فساده على بعض الناس .

و - فينبغي تربية أذواق الناشئين وعقولهم ، على أن القرآن والسنة وإجماع السلف هي المصادر القدوة ، والمقياس الصحيح لكل معرفة ، وعلى كيفية الرجوع إلى هذه المصادر وفق مناهج البحث الإسلامية ، وإذا كنا قد توسعنا في هذا المصدر أكثر من غيره ، فقد أردنا أن نعرض للباحث التربوي نمطاً من أنماط منهج البحث في التربية الإسلامية وغيرها من البحوث الإسلامية . فالتربية الإسلامية تحتاج إلى التأكد من صحة النصوص التربوية في القرآن والسنة ، ولهذا لا بد من الإمام بمصطلح الحديث ، ثم القدرة على فهم النص ، ولهذا لا بد من الإمام بعلم أصول الفقه واللغة ، وفيه أصول القياس والاستنباط ، وقد عرضنا نموذجاً فيه ؛ والحقيقة والحجاز ... ثم القدرة على استنباط علل النصوص والأحكام الأصلية وإيجاد الصلة بينها وبين الفروع والتطبيقات والمواقف العملية في حياتنا ...

المصدر الثاني : الفطرة

تمهيد : نعني بالفطرة في مجال المعرفة عند ابن تيمية : (القوة العزيرية التي تعين على معرفة الحق وعلى محبته ، والتي فطر الله كل مولود عليها)^(١) .

(١) جامع الرسائل (مرجع سابق) ٢٤٣

وينوه ابن تيمية بأهمية الفطرة عندما يردّ على المحتجّين بالاستدلال العقلي حيث يقول :

« وقولهم إن نفوس العقلاء تتشوّف إلى الاستدلال . يقول لهم المنازعون : لا نسلم أن جميع العقلاء كذلك ، بل جمهور العقلاء مطمئنون إلى الإقرار بالله تعالى ، وهم مفطورون على ذلك ولهذا : إذا ذكر لأحدهم اسمه تعالى ، وجد نفسه ذاكرة له ، مقبلة عليه ، كما إذا ذكر له ما هو معروف عنده من المخلوقات .. » ^(١) .

ويبرهن ابن تيمية على وجود الفطرة ببرهان يقوم على ما يشبه (مبادئ العقل) عند علماء المناهج المعاصرين ، كبداً السببية ، ومفاده أن وجود المسبّب يلزم عنه وجود السبب كقول العامة (لا دخان بلا احتراق ومبدأ الهوية ، ومن معانيه أن يلزم الجزء ما يلزم الكلّ المشتمل عليه ، وعلى هذا المبدأ قامت العلوم الرياضية ، وكبدأ الغائية (لزوم الغاية عن مقدماتها) وعليه قامت علوم الحياة . لكن ابن تيمية عبّر عن ذلك كله بمبدأ واحد شمل كل مبادئ العقل التي قامت عليها العلوم المعاصرة ، سمّاه (انتقال الذهن من الملزوم إلى اللازم) فقال مطبقاً هذا المبدأ في مجال معرفة الله :

« فعلم أن معرفته في الفطرة أثبت وأقوى ، إذ كان وجود العبد

(١) درء تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ٨ / ٢٧-٢٨

ملزوم وجوده ، وحاجاته معلقة به سبحانه وتعالى ، بل كل ما يخطر بقلب العبد ويريده فهو ملزوم له ، وخواطر العباد وإراداتهم لا نهاية لها ؛ وانتقال الذهن من الملزوم إلى اللازم لا ينحصر ، بل إقرار القلوب به قد لا يحتاج إلى وسط وطريق ، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات «^(١) .

فإقرار القلب والعقل بوجود الله تعالى عن طريق هذا المبدأ ثابت بالفطرة لا يحتاج إلى دليل ، لأن وجود الإنسان ، وممارسته للحياة ، ملزوم للموجد ، المحيي ، فلا حياة بلا محي وهكذا وجود الكائنات ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(٢) فانتقال العقل من وجود الإنسان إلى الموجد ، ومن الأحداث إلى الحدث ، ... ومن الأحياء إلى المحيي هو من قبيل انتقاله من الملزوم إلى اللازم ، لا يحتاج إلى برهان ومقدمات ودليل ، وهو ما يكون عن طريق (الحدس العقلي) كما يسميه علماء المناهج اليوم ، بل عن طريق الفطرة كما سماها ابن تيمية . لكن الفطرة قد يعتريها مرض ، فترى الحق باطلاً ، لذلك يشترط ابن تيمية سلامة الفطرة ، لتصح المعرفة الناجمة عنها إذ يقول : « والعلوم الفطرية الضرورية حاصلة مع

(١) درء تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ٨ / ٣٧ - ٣٨

(٢) الطور ٣٥

صحة الفطرة وسلامتها ؛ وقد يعرض للفطرة ما يفسدها ويعرضها ،
فترى الحق باطلاً ، كما في البدن إذا فسد أو مرض ^(١) .

ومن أسباب مرض الفطرة ، اتباع الهوى ، والتقليد الأعمى :
« وقد خلق الله كل مولود على الفطرة التي تتضمن القوة على معرفة
الحق ، وعلى محبته . ولكن غيّر فطرته بما يقلده عن غيره ^(٢) ، لما قال
النبي ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ،
وينصرانه ، ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها
من جدعاء » ^(٣) ، وإذا كان قد خلق على الصحة والسلامة ، فهو
يستحق العقوبة على ما غيّر من خلق الله بتفريطه وعدوانه لاتباعه
لظن ، وما تهوى الأنفس » .

الخلاصة والنتائج التربوية :

يمكن تلخيص رأي ابن تيمية حول المعرفة عن طريق الفطرة كما
يلي :

-
- (١) درء تعارض النقل والعقل (مرجع سابق) ٢ / ٣٠٦ ، ويقصد بالعلوم هنا :
المعرفة الناجمة عن الفطرة بالضرورة .
 - (٢) ابن تيمية : جامع الرسائل (مرجع سابق) ٢٤٣-٢٤٤
 - (٣) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد ومالك (حاشية درء تعارض النقل
والعقل ٧١/٣ تحقيق د . محمد رشاد سالم)

١ - معرفة الله تعالى بالفطرة ضرورة لا ينكرها إلا من فسدت فطرته ، ف (كون الخلق مفطورين على الإقرار بالخالق أمر دل عليه الكتاب والسنة ، وهو معروف بدلائل العقول ...)^(١) وهم مفطورون كذلك على (معرفة الحق ، ومحبته ...) .

٢ - (... لكن من الناس من فسدت فطرته ، فاحتاج إلى دواء ، ...)^(٢) والدواء يكون بعد معرفة السبب ، ومن أسباب فساد الفطرة (اتباع الظن ، وما تهوى الأنفس) ، لذلك يجب تطهير النفوس من كل ما يفسد الفطرة ، وتربية الأجيال على طلب الحق ومحبته ، والبعد عن الهوى ، والظن ، وعلى صفاء النفس ، وعلى البراهين القرآنية التي تعتمد على الفطرة والبداة ...

٣ - من معاني الفطرة في مجال المعرفة (انتقال الذهن من الملزوم إلى اللازم) أي من الأحوال الحسية المشهودة إلى ما يلزم عنها بالفطرة ، كالانتقال من شعور الإنسان بالحياة والوجود إلى المحيي والموجد إلخ ... وكثير من الآيات والبراهين القرآنية على وجود الله وعلى البعث تعتمد على هذه الفطرة ... وقد يعبر عنها ب (المعرفة بالحدس العقلي) في عصرنا ، لذلك يجب تربية الأجيال على إنعاش هذه الفطرة واستخدامها في المواقف المختلفة ...

(٢،١) جامع الرسائل (مرجع سابق) ١٤

٤ - تبدأ هذه (الفطرة) على شكل (قوة على معرفة الحق ومحبه) خلق الله كل مولود عليها ، فهي استعداد يولد مع الإنسان . (وينمو بحسب حاجته وظروفه شيئاً فشيئاً)^(١) « ولهذا يوصف الرسل بأنهم ﴿ يَذْكُرُونَ ﴾^(٢) ويصف الله آياته بأنها ﴿ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى ﴾^(٣) أي تذكير بما وقر في النفس من هذه الفطرة^(٤) .

المصدر الثالث : الأدلة العقلية :

ومفادها ترتيب النتائج على مقدمات يسلم الخصم بها ، إما لوضوحها للعيان ، وإما لما سبق من البرهان والاتفاق عليها ... وإجراء الدليل بهذا الأسلوب يسمى استدلالاً ، وصحة النتائج تعتمد على أمورٍ أهمها صحة المقدمات ، والربط بين النتائج والمقدمات ، أو لزوم النتائج عن المقدمات ، أو وضوح العلاقة بين النتائج والمقدمات .

وللأدلة العقلية أشكال وأنواع ليس هنا موضع بسطها ... ويبرهن ابن تيمية بما أوتي من الحافظة والوعي والتدبر ، على انتشار

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ٢٨٤/٨

(٢) النحل ١٣

(٣) ق ٨

(٤) جامع الرسائل (مرجع سابق) ١٦

الأدلة العقلية وكثرتها في القرآن والسنة ، وتنوعها ، وذلك رداً على المتفلسفة والمتكلمين الذين زعموا أن الرسول لم يبين أصول الدين وأدلتها العقلية وهذا المصدر ليس مستقلاً بذاته ، بل هو تابع للمصدرين السابقين . فلا بد للأدلة العقلية أن تكون نتائجها موافقة للشرع ، وللفطرة السلية ، ولكنها على كل حال وسيلة لإفحام الخصم أو إقناعه وتسليه بالمطلوب . ويسمى ابن تيمية ما جاء عن الرسل بـ (أدلة السمع) أو (دلالة السمع) في مقابل (أدلة العقل) لأن الأولى تبليغنا عن طريق السماع والأخبار فيقول « وأما إذا عرف أن دلالة السمع تتناول الأخبار ، وتتناول الإرشاد والتنبيه ، والبيان للدلائل العقلية ، وأن الناس ، كما يستفيدون من كلام المصنفين والمعلمين الأدلة العقلية التي تبين لهم الحق ، فاستفادتهم ذلك من كلام الله أكمل وأفضل ، فتلك الأدلة عقلية ، باعتبار أن العقل يعلم صحتها إذا نبه عليها ، وهي شرعية باعتبار أن الشرع دلّ عليها ، وهدى إليها .

فَعَلَى التَّقْدِيرِ يَنْتَبِهُ أَنَّ الْأَدْلَةَ حِينَئِذٍ شَرْعِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ » (١) .

الاستدلال بحدوث الإنسان

ومن الأدلة العقلية على وجود الله الاستدلال بحدوث الإنسان

(١) درء تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ٣٦٨ - ٣٧

وهي في الوقت ذاته من قبيل (انتقال الذهن من الملزوم إلى اللازم)
كما رأينا في (الفطرة) فالإنسان (حادث) وهذا (ملزوم) ، لازمه
(أن يكون له محدث) .

وأما الاستدلال بمحدوث الإنسان - على طريقة العقلين وأهل
المنطق - فيكون بمقدمتين ونتيجة يمكن عرضها على النحو التالي :

الإنسان حادث

ولا بد لكل حادث من محدث

(إذن) المُحدث الأول وهو الخالق موجود

ويقول ابن تيمية عن هذه الدلالة « وأما الحجة المتقدمة ، وهي
الاستدلال بمحدث الإنسان ، فإنها حجة صحيحة ، وهي من الحجج
التي دل عليها القرآن وأرشد إليها » ^(١) .

أما القرآن فقد وردت فيه هذه الدلالة في عدة آيات على شكل
استفهام تقريرى قال عنه ابن تيمية :

« والقرآن مشتمل على هذا وهذا ، ولهذا ، إذا جادل يسأل ،
ويستفهم عن المقدمات البينة البرهانية التي لا يمكن لأحد أن
يبحدها . لتقرير المخاطب بالحق ، ولاعترافه بإنكار الباطل » ^(٢) ، كما في

(١) المرجع السابق ٣٥

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى ١٨٧/١ (مرجع سابق)

مثل قوله : ﴿ أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ^(٢) .
 وقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ، أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ، ثُمَّ كَانَ عُلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ، أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ^(٥) وقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ^(٦) . وقوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ ^(٧) إلى أمثال ذلك مما يخاطبهم باستفهام التقرير المتضمن إقرارهم واعترافهم بالمقدمات البرهانية التي

(١) الطور ٣٥

(٢) ق ١٥

(٣) يس ٨١

(٤) القيامة ٣٦ - ٤٠

(٥) الواقعة ٥٨ ، ٥٩

(٦) طه ١٣٣

(٧) البلد ٨ - ١٠

تدل على المطلوب^(١) . ثم قال مبيناً ميزة هذا الجدل القرآني « فهو من أحسن جدل بالبرهان . فإن الجدل إنفاً يشترط فيه أن يسلم الخصم المقدمات ، وإن لم تكن بينة معروفة ، فإذا كانت بينة معروفة كانت برهانية . والقرآن لا يحتج في مجادلته بمقدمة مجرد تسليم الخصم بها ، كما هي الطريقة الجدلية عند أهل المنطق وغيرهم ، بل بالقضايا والمقدمات التي تسلمها الناس ، وهي برهانية . وإن كان بعضهم يسلمها وبعضهم ينازع فيها ذكر الدليل على صحتها . كقوله :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَارِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾^(٢) .

قلت : وهذه الأدلة (العقلية - الشرعية) يمكن للقارئ أن يحول كل دليل منها إلى صورة استدلال على النحو الذي عرضته (مقدمتان ونتيجة) فالقرآن اكتفى بالمقدمة الكبرى التي أفحم بها الخصم وترك للعقل أن يستكمل المقدمة الثانية والنتيجة ، وقد يذكر مقدمتين ويترك للإنسان النتيجة فقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ، أَأَنْتُمْ

(١) المرجع السابق ١٨٧

(٢) الأنعام ٩١

تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿١﴾ . يمكن تبسيطه إلى مقدمات على النحو التالي :

المني لا يصبح إنساناً إلا بخلق خالق

الإنسان لم يخلق نفسه

إذن لابد للإنسان من خالق وهو الله

ونقل ابن تيمية عن غيره من العلماء اعتراف أئمة النظّار بما في القرآن من أدلة عقلية إذ قال : « ... فإن الخطّابي ذكر طريقين : أحدهما المعجزات ... والطريق الثاني أن القرآن نبه على الأدلة العقلية الصحيحة ^(٢) . كما اعترف أئمة النظّار بأن القرآن دلّ على الطريق العقلية فقال (وقد نبههم الكتاب على ذلك ، ودعاهم إلى تدبره وتأمّله ، والاستدلال به على ثبوت رُبُوبِيَّتِهِ ^(٣) ، فقال عز وجل : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ^(٤) إشارة إلى ما فيها من آثار الصنعة ولطيف الحكمة الدالّين على وجود الصانع الحكيم » .

(١) الواقعة ٥٨ ، ٥٩

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٢٥٤/٨

(٣) هذا كلام أحد أئمة النظّار (أي المتكلمين) نقله ابن تيمية عن الخطّابي (في كتاب (الغنية عن الكلام وأهله) ، كما حققه د . محمد رشاد سالم تعليقاً على

. ٣٥١

(٤) الذاريات ٢١

ثم قال مقررأ رأي الخطابي « فقد بيّن الخطابي بعض ما نبه عليه القرآن من الاستدلال بالآيات النفسية والأفقيّة وهي أدلة عقلية »^(١) .

ويعتمد الاستدلال العقلي الصحيح على الفطرة السليمة ، لذلك يرى ابن تيمية في كتابه (الرد على المنطقيين) : « أن في الفطرة السليمة قدرة على الاستدلال الصحيح » إذ : « يؤكد أن الفطرة إذا كانت صحيحة وزنت بالميزان العقلي ، وإن كانت فاسدة لم يزلها المنطق إلا فساداً »^(٢) .

المصدر الرابع : الإدراك بالحواس

يقرّ ابن تيمية هذا المصدر ، من خلال مناقشته لبعض المذاهب حول إثبات وجود الله تعالى إذ يقول :

« وأما الطريق الثاني ، وهو إدراك الحواس ، فلا ريب أنهم لا يقولون إنهم يدركونه - تعالى - بالحس الظاهر ، بل يقولون :

إن الحس نوعان : ظاهر وباطن . والإنسان يحسّ بباطنه الأمور الباطنة ، كالجوع والعطش ، والشبع والري ، والفرح والحزن ، واللذة والألم ، ونحو ذلك من أحوال النفس .

(١) المرجع السابق ٣٥٥

(٢) ٣٧٤ نقله عنه محمد حسني الزين : (منطق ابن تيمية ٢٣٧)

فهكذا يحسّون ما في بواطنهم من محبته سبحانه ، وتعظيمه ،
والذلّ له ، والافتقار إليه ، مما اضطروا إليه وفطروا عليه ، ويحسّون
أيضاً ما يحصل في بواطنهم من المعرفة المتضمنة لمثله الأعلى في
قلوبهم »^(١) .

وهكذا يلخّص لنا ابن تيمية (المبحث النفسي) السائد في
عصره ، عن الإحساس ، فيقسم الحسّ إلى ظاهر وباطن ، ويجعل
معرفة الله مما يصدر عن الحسّ الباطن بالأحوال النفسية الناشئة عن
مناجاة الله ومراقبته ومحبته والخوف منه والافتقار إليه إلخ ...

ثم يقسم الإحساس تقسيماً آخر فيقول :

« والإحساس نوعان : نوع بلا واسطة ، كالإحساس بنفس
الشمس والقمر والكواكب ، وإحساس بواسطة كالإحساس بالشمس
والقمر والكواكب في مرآة أو ماء أو نحو ذلك »^(٢) .

وكأنه يميل بهذا التقسيم الثاني إلى تصنيف معرفة الله عند أكثر
الناس في النوع الثاني من الإحساس ، فعامة الناس يدركون عظمة
الله عن طريق الإحساس بآثار قدرته في الآفاق ، أي (بواسطة)
الإحساس بهذه الآثار ، ولكن لما كان هذا هو الشائع لم يحتج إلى
ذكره ، بل انتقل إلى النوع الأول .

(١ و٢) درة تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ٤٠/٨ - ٤١

أثر القلب في الإدراك الحسي :

مما يلاحظ هنا أن ابن تيمية لا يستبعد أيضاً أن تكون بعض القلوب مستعدة لمشاهدة الله تعالى ، فهذا أمر ممكن عقلاً ومحكيّ - شرعاً - عن رسول الله ﷺ ، بخلاف المشاهدة الحسية الظاهرة في الدنيا فهذا ممتنع شرعاً . لكنه مهّد لذلك حين قال في انتقال الإحساس من الحواس إلى القلب .

« والقلوب مفطورة على أن يتجلى لها من الحقائق ماهي مستعدة لتجليها فيها ، فإذا تجلّى فيها شيء ، أحسّت به إحساساً باطنياً بواسطة تجليّه فيها » ^(١) .

وهكذا يقرر ابن تيمية أن الحسّ الباطن لا ينقلب إلى معرفة حتى يتجلى للقلب ، فإن كان القلب مستعدّاً ، أحسّ بهذه الحقيقة على حسب استعداده ، وإن لم يكن مستعدّاً لم يحصل الإحساس القلبي .

وهذا القانون النفسيّ يقابله ما يشبهه أو يماثله في عصرنا ، في مبحث (الإدراك الحسي) فالإحساس لا ينقلب إلى إدراك في رأي علماء النفس المعاصرين حتى يترجمه العقل ويصنّفه بحسب استعداده ومدرّكاته السابقة ، وخبراته الماضية .

وبعد أن يقرر ابن تيمية هذه الحقيقة النفسية ، يبيّن عليها إمكان

(١) درء تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ٤٠/٨ - ٤١

مشاهدة بعض القلوب لنفسه تبارك وتعالى ، بحسب استعدادها
فيقول :

« وأيضاً ، فنفس مشاهدة القلوب لنفسه تبارك وتعالى أمر
ممكن ، وإن كان ذلك قد يقال : إنه مختص ببعض الخلق ، كما قال
أبو ذرّ وابن عباس وغيرهما من السلف : إن نبينا ﷺ رأى ربّه
بفؤاده » ^(١) .

المصدر الخامس : النقل والخبر والتواتر :
يقصد بالتواتر ، كما يعرفه علماء الحديث أن يتنقل الخبر أو
الحقيقة العلمية جمع عن جمع ، لا يعقل تواطؤهم على الكذب .

ويشترط بعض (المتكلمين) أن يكون التواتر مبنياً على المشاهدة
حتى تحصل به المعرفة لكن ابن تيمية ينكر عليهم هذا الشرط فيقول :

« وأما قولهم : (لا يجوز أن تكون معرفتنا به - تعالى - واقعة
بالخبر ، لأن الخبر إنما يفضي إلى المعرفة ، إذا أخبر به خلق كثير عن
مشاهدة ، وليس أحد يخبر بالله عن مشاهدة) فهذا مما ينازعهم فيه
المنازعون ، ويقولون : ليس من شرط أهل التواتر أن يخبروا عن
مشاهدة ، بل إذا أخبروا عن علم ضروري حصل العلم بمخبر أخبارهم ،

(١) دره تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ٤٠/٨ - ٤١

وإن لم يكن الخبر به مشاهداً ^(١) .

وهكذا يعتبر ابن تيمية الخبر والتواتر مصدراً للمعرفة مستقلاً عن
المشاهدة ، ويؤيد ذلك بأمثلة وبراهين إذ يقول :

« ولهذا كانت العدالة والفسق تثبت بالاستفاضة ، ويُشهد بها
بذلك ، كما يشهد المسلمون كلهم أن عمر بن عبد العزيز كان عادلاً ،
وأن الحجاج كان ظالماً . والعدل والظلم ليس أمراً مشاهداً بالظاهر ...
وكذلك من لا يعرف الطب والنحو : إذا رأى ماتواتر عند أهل
الطب ، والنحاة ، من علم أبقرط وجالينوس وأمثالهما ، والخليل
وسيبيويه ، علم أن هؤلاء علماء بالطب والنحو ، وإن لم يعرف هو
الطب والنحو . وليست معرفة المخبرين بذلك عن المشاهدة ..

فالعلم بمُخْبَرِ الأخبار يحصل إذا كان المُخْبَرُ عالماً بالضرورة ، سواء
كان الخبر به مشاهداً أو لم يكن ^(٢) .

ثم قال مبيناً مساواة أهمية العلم بالتواتر والخبر لأهمية العلم
بالمشاهدة :

« وهكذا العلم بصدق الصادق ، وكذب الكاذب ، يعلمه من

(١) درء تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ٤٣/٨

(٢) المرجع السابق ٤٤ - ٤٥

جربه وباشره ضرورةً ، ويعلمه من تواتر عنده بطريق الخبر ، ولذلك كان العلم بأن محمداً ﷺ كان صادقاً معروفاً بالصدق ، لا يكذب متواتراً عند من لم يباشره » ^(١) .

بقي أن نعرف منهج ابن تيمية في معرفة صحة نقل الخبر ، وصدقه ، وشروط التواتر ، لكن ابن تيمية لم يترك لنا مؤلفاً أو بحثاً خاصاً في هذا ، بل ترك إشارات وتلميحات تدل على أنه اتبع في هذا المجال منهج علماء الحديث ومصطلح الحديث ، وعلماء الجرح والتعديل ، وكانت هذه العلوم ناضجة في عصر ابن تيمية وقواعدها واضحة ، ومؤلفاتها متوفرة ، لذلك أغنته الإشارة إليها عن سردها وبسطها وتفصيلها ، كقوله في نقد بعض المتكلمين (المعتدلين منهم)

« فصفوا كتباً قدموا فيها ما يدل على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة لكنهم قد يخلطون الآثار صحيحها بضعيفها » ^(٢) .

وكقوله مُشيراً إلى فحول علماء السنة والحديث ؛ وبعض مراجعها :

« وهذا كثير في الحديث والآثار ، يذكرونه في الكتب التي تذكر فيها هذه الآثار ، كما يذكر مثل ذلك غير واحد ، فيما يصفونه في

(١) درء تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ٤٥/٨

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى (مرجع سابق) ١٨٤

السنة مثل : ابن بطة ، واللالكائي ، والطائفي ، وقبلهم المصنفون في السنة كأصحاب أحمد مثل عبد الله والأثرم وحرب الكرمانى وغيرهم ، ومثل الخلال وغيره ^(١) .

وقد أشرنا إلى ذلك في (المصدر الأول) تحت عنوان (منهج ابن تيمية في الرجوع إلى الكتاب والسنة) .

المصدر السادس : الإلهام .

تعريفه وعلاقته بالفطرة : الإلهام : إشراق المعرفة وانبثاقها دفعة واحدة ، بدون مقدمات معينة أو تذكر لمحفوظ أو خبرة واضحة .

وإذا استعرضنا ما استنبطناه من رأي ابن تيمية عن (الفطرة) ، وجدنا علاقة بين الفطرة والإلهام .

فإذا كانت (الفطرة) : استعداداً بالقوة لمعرفة الحق ومحبه ، يولد مع كل مولود من البشر .

فإن (الإلهام) تحقيق هذا الاستعداد وانتقاله بغتة ، ودون إعداد ، من القوة إلى الفعل .

(١) المرجع السابق ١٩٥

ويرى ابن تيمية أن المعرفة عن طريق الإلهام ممكنة ، فيما يتعلق بمعرفة الله عز وجل . إذ يقول :

« وأما طريق الإلهام ، فالإلهام الذي يدعى في هذا الباب ، هو - عند أهله - علم ضروري لا يمكنهم دفعه عن أنفسهم . أو مستند إلى أدلة خفية لا تقبل النقض ، فلا يمكن أن يكون باطلاً » ^(١) .

وإذا تأملنا هذه العبارة وجدنا مصداق ما ذهبنا إليه من العلاقة بين الفطرة والإلهام فكلاهما ينعت به ابن تيمية بأنه (ضروري) فطريق الإلهام (علم ضروري لا يمكن دفعه) و (العلوم الفطرية الضرورية حاصلة مع صحة الفطرة) ^(٢)

لكن ابن تيمية يذكر هذا المصدر (الإلهام) بشيء من التحفظ ، أو بقليل من الحماسة إذ يقول : « وليس من الممتنع وجود العلم بثبوت الصانع ، وصدق رسوله إلهاماً ، فدعوى المدّعي امتناع ذلك يفتقر إلى دليل » ^(٣) كما أنه لا يأخذ بنتائج الإلهام في مجال معرفة الأحكام ، يبدو ذلك في قوله :

« وأما الاستدلال على الأحكام بالإلهام ، فتلك مسألة أخرى

(١) درء تعارض العقل والنقل مرجع سابق ٤٦/٨

(٢) درء تعارض العقل والنقل مرجع سابق ٣٠٦/٨

(٣) المرجع السابق ٤٦/٨

ليس هذا موضعها ، والكلام في ذلك متصل بالكلام على الاستحسان
والرأي وأنواعها . وأن ما يعنيه هذا بالاستحسان ، قد يعنيه هذا
بالإلهام ^(١) وهكذا يشك ابن تيمية في دلالة الإلهام في غير مجال
الإلهيات .

. شروطه : والإلهام شعور غامض قد يختلف من شخص إلى
شخص ، لذلك لا بد له من ضابط ، ولهذا يرى ابن تيمية اشتراط
موافقته العقل والشرع فإن لم يوافقها لم يؤخذ به وهذا ما يلزم عن
قوله :

« وليس الكلام فيما علم فساده من الإلهام ؛ لخالفته دليل الحسّ
والعقل ، والشرع ؛ فإن هذا باطل . بل الكلام فيما يوافق هذه الأدلة
لا يخالفها » ^(٢)

وهذه قاعدة عامة يشترطها ابن تيمية لكل مصادر المعرفة ، عدا
الأول ، كما اشترطها هنا للإلهام ، سواء كان في الإلهيات أم في
الأحكام .

كما أن هذا الشرط يذكرنا بما يشترطه علماء الطبيعة اليوم لصحة
الافتراض الفرضية لاتصح إلا إذا أيدها الحس والتجريب والعقل

(١) (٢) المرجع السابق ٤٦

والعلم ، والافتراض يخطر على الذهن إشراقاً وحدهساً ، شأنه في ذلك شأن الإلهام ، فكأنَّ بين الإلهام والافتراض وجه شبه من هذا القبيل . يؤيده قول ابن تيمية « والكلام في ذلك (يعني في الإلهام) متصل بالكلام على الاستحسان والرأي وأنواعهما »^(١) ، لأن الاستحسان والرأي يبدأان بتخيل مناط الحكم أو تحقيق المصلحة أو الهدف الشرعي ، كما أن الافتراض هو تخيل لعلّة مَرَض ، أو قانون لحادثة الطبيعة ، ثم يؤيده التجريب والعرض على مسلمات العلم .

فالإلهام قد يُصدِّقه المصدران الأوّلان : القرآن والسنة بشرط أن يكون الملهم مؤمناً عابداً متبعاً للقرآن كما قال ابن تيمية « وأما حجة أهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطبة فإن أهل الحق من هؤلاء لهم (إلهامات صحيحة) مطابقة^(٢) . كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « قد كان في الأمم قبلكم محدثون ؛ فإن يكن في أمتي أحد ، فعمر » .. وفي الترمذي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ أقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّينَ ﴾^(٣) وقال بعض الصحابة : أظنه - والله أعلم - الحقّ يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم . وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة

(١) المرجع السابق ٤٦

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى (مرجع سابق) الرسالة الأولى ، الفرقان ٥١/١ - ٥٢

(٣) الحجر ٧٥

عن النبي ﷺ أنه قال : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » وفي رواية : « فبي يسمع وبني يبصر ، وبني يبطش وبني يمشي »

فالشرط الثاني من شروط صحة الإلهام أن يكون الملهم مؤمناً تقياً كثير العبادة ، صادق القلب مع الله . مشتهراً بالتزام حدود الشرع والخير عليها ، وقد جمع بين نور الإيمان ونور القرآن كما قال ابن تيمية في تمام كلامه السابق :

« وقال ﷺ : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يسأله ولم يستعن عليه ، أنزل الله عليه ملكاً يسدده » وقال تعالى : ﴿ نُوْرٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾^(١) : نور الإيمان مع نور القرآن . وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيْنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾^(٢) وهو المؤمن ، على بينة من ربه ، ويتبعه شاهد من الله ، وهو القرآن : شهد الله في القرآن بمثل ما عليه المؤمن في بينة الإيمان »^(٣)

فإذا خالف الإلهام القرآن والسنة ، ظنه الملهم من الله ، وهو من

(١) النور ٣٥

(٢) هود ١٧

(٣) مجموعة الرسائل الكبرى (مرجع سابق) الرسالة الأولى ، الفرقان ٥١/١ - ٥٢

الشیطان . كما قال ابن تیمیة : « وكل من خالف الرسول لا ینخرج عن الظن وما تهوى الأنفس فإن كان ممن یعتقد ما قاله وله فیه حجة يستدل بها ، كانت غایتة الظن الذي لا یغنی من الحق شیئاً ، كاحتجاجهم بقیاس فاسد ، أو نقل كاذب ، أو خطاب ألقى إلیهم ، اعتقدوا أنه من الله ، وكان من إلقاء الشیطان »^(١)

فعبر عن الإلهام بقوله (أو خطاب ألقى إلیهم) وأحياناً یعبر عن الإلهام - جریاً مع بعض الصوفیین - بالذوق والوجد كما جاء فی قوله :

« فالذوق والوجد هو یرجع إلى حب الإنسان ووجده بجلاوته .. وكل صاحب محبة فله فی محبوبة ذوق ووجد ، فإذا لم یكن ذلك بسلطان - أي حجة - من الله ، وهو ما أنزل على رسوله ﷺ - كان صاحبه متبعاً لهواه بغير هدی »^(٢)

« وكذلك من اتبع ما یرد علیه من الخطاب أو ما یراه من الأنوار والأشخاص الغیبیة ، ولا یعتبر ذلك بالكتاب والسنة ، فإنما یتبع ظناً لا یغنی من الحق شیئاً .

فلیس فی المحدثین الملهمین أفضل من عمر ... وقد وافق عمر ربّه

(١) مجموعة الرسائل الكبرى (مرجع سابق) ٥١/١

(٢) المرجع السابق ٥٥ - ٥٦

في عدة أشياء ، ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول ، ولا يتقدم بين يدي الله ورسوله بل يجعل ما ورد عليه تابعاً لهما . وكان إذا تبين له من ذلك أشياء خلاف ما وقع له ، فيرجع إلى السنة ، وكان أبو بكر يبين له أشياء خفيت عليه فيرجع إلى بيان الصديق وإرشاده وتعليقه .. «^(١)

فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة لم يكن أفضل من عمر ، فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة «^(١)

(١) المرجع السابق ٥٥ - ٥٦ .

بعض المبادئ التربوية عند ابن تيمية

تمهيد :

نقصد بمبادئ التربية ، قواعد أو قوانين تربوية عامة لها سعة في التضمن والشمول . يتفرع عنها تطبيقات وأساليب تربوية ، وقد تلزم عنها لزوماً ... وبعض مبادئ التربية الإسلامية لها صفة النص الشرعي فهي جزء من حديث ، ولا غرو ، فالقرآن والسنة فيها تشريع تربوي وشمول لجميع مبادئ التربية الإسلامية ، إمّا بالنص الصريح ، وإمّا بالاستنباط من أساليب القرآن والسنة ، أو موافقها التربوية ...

وفيما يلي بعض المبادئ التربوية المستنبطة من رسائل ابن تيمية المختلفة في العقيدة والشرعية ...

المبدأ الأول : « كل مولود يولد على الفطرة »

تمهيد :

رأينا بعض معاني الفطرة في مجال المعرفة ، وسنرى في هذا البحث أن للفطرة أكثر من معنى ، عند علماء الإسلام ، بل عند ابن تيمية ، مستنبطاً ذلك من الأحاديث والآيات وأقوال السلف والأئمة ؛

منها براءة المولود ، وسلامته ، واستعداده للتوحيد والإسلام ، ولعرفة الله ، ولعرفة الحق وطلبه ... ولكل من هذه المعاني دلائله وآثاره التربوية ، فترية الطفل ونشأته ، تختلف باختلاف اعتباره بين أفراد مجتمعه ونظرتهم إليه ، فإذا أُعْتَبِرَ وَارِثاً للخطيئة ، وجب تطهيره منها ، وإذا أُعْتَبِرَ مَوْطِئاً لعبث الشياطين وتأثيرهم ، عومل على هذا الأساس بالردع والضرب ونحو ذلك مما كان منتشرأ في أوربا في قرونها الوسطى وعصور ظلامها ...

لذلك فإن مبدأ الفطرة ، كسائر مبادئ التربية الإسلامية ، كله خير للطفولة وللمجتمع ، وللإنسانية ، كما سنبين ذلك .

١ - فالمعنى الأول للفطرة هو الإسلام (يعني الاستعداد الغريزي للإسلام) وقد ذكر ابن تيمية ذلك وهو يعلق على كلام للإمام أحمد بن حنبل حول الموضوع :

« قلت : أحمد لم يذكر العهد الأول ، وإنما قال : الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها ، وهي الدين . وقد قال في غير موضع : إن الكافر إذا مات أبواه أو أحدهما ، حكم بإسلامه ، واستدل بالحديث « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » فدل على أنه فسر الحديث بأنه يولد على فطرة الإسلام ^(١) »

(١) درء تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ٣١١/٨

٢ - المعنى الثاني السلامة . قال ابن تيمية :

« والمولود يولد على الفطرة سليماً .. كما مثل النبي ﷺ ذلك بقوله (في تمام الحديث السابق) : « كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » فبيّن أن البهيمة تولد سليمة ثم يجدعها الناس .. فكذلك المولود يولد على الفطرة سليماً ، ثم يفسده أبواه »^(١)

وهذا المعنى ذهب إليه المربي الاوربي (جانجاك روسو) بعد ابن تيمية بعدة قرون ، إذ عبّر عنه (بأن كل شيء يخرج من يدي خالق البرايا جميل ، ولكن الإنسان يفسده) . لكنه بنى عليه نتيجة سلبية وهي ترك الطفل يتربّى في الطبيعة دون توجيه حتى يبلغ الثانية عشرة . بينما ذهب ابن تيمية وعلماء الإسلام ، إلى ضرورة تأكيد فطرته ، وتوجيه استعداداته الفطري نحو التوحيد والإسلام ، لأن هذه الفطرة قابلة للانحراف والمرض ، فيجب حفظها وصيانتها بالترية والتوجيه .

٣ - ويؤيد ابن تيمية مبدأ الفطرة بحديث آخر « خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالهم الشياطين ، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم ،

(١) المرجع السابق ٣٦٢ ، والحديث في الصحيحين : في البخاري (كتاب الجنائز) باب (إذا أسلم الصبي) وباب (ما قيل في أولاد المشركين) إلخ ... وفي مسلم (كتاب القدر) ، انظر التعليق على ٧١/٢ درء تعارض العقل والنقل تحقيق د . محمد رشاد سالم .

وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يَشْرِكُوا بِي ، مَا لَمْ أَنْزَلْ بِهِ سُلْطَاناً ^(١) . ثم يقول بعد أن ساق الحديث « وهذا صريح في أنه خلقهم على الخنيفية ، وأن الشياطين اجتالتهم بعد ذلك ^(٢) »

ويرتب ابن تيمية على هذا عدم قتل أولاد المشركين إذا وجدوا في الحروب ، بل يجب أخذهم إلى صفوف المسلمين وتربيتهم على الإسلام لتزكية فطرتهم وإظهارها ، ويؤيد ذلك بحديث الأسود بن سريع الذي رواه أحمد وغيره . قال : « بعث النبي ﷺ سرية ، فأفصى بهم القتل إلى الذرية ؛ قال : ما حَمَلَكُم على قتل الذرية ؟ قالوا : يا رسول الله أليسوا أولاد المشركين ؟ قال أوليس خياركم أولاد المشركين ^(٣) » ومعناه أن خياركم من المهاجرين والأنصار وهؤلاء من أولاد المشركين ، فإن آباءهم كانوا كفاراً ، ثم إن البنين أسلموا بعد ذلك ، فلا يضر الطفل أن يكون من أولاد المشركين إذا كان مؤمناً فإن الله إنما يجزيه بعمله ، لا بعمل أبويه ^(٤) »

(١) ورد هذا الحديث من رواية عياض بن حمار ، عن النبي ﷺ في مسلم ٢١٩٧/٤ - ٢١٩٨ (كتاب الجنة وصفة نعيمها) . وأوله : (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ..) انظر التعليق على ٧٢/٣ من المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ٣٦٢/٨

(٣) سنن الدارمي ٢/٢٢٢ ، ومسنند أحمد ط . الحلبي ٤٣٥/٣ ، ٢٤/٤

(٤) المرجع السابق ٢٦٤ (درء تعارض العقل والنقل)

٤ - ثم يبين ابن تيمية معنى وجود الاستعداد الفطري عند المولود ، وغوه تدريجياً وذلك حين يوضح لنا معنى أن يولد الطفل على فطرة الإسلام فيقول : « وإذا قيل : إنه ولد على فطرة الإسلام أو خلق حنيفياً ونحو ذلك ، فليس المراد أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده ^(١) ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ ^(٢) ولكن فطرته مقتضية موجبة لدين الإسلام : لمعرفته ومحبته . فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له . وموجبات الفطرة ومقتضاها تحصل شيئاً بعد شيء ، بحسب كمال الفطرة إذا سلمت عن المعارض » .

ولمزيد من الإيضاح يشبه ابن تيمية (الفطرة) الواردة في الأحاديث ، بغريزة طلب الغذاء عند الإنسان « كما أن كل مولود يولد ، فإنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة ، فيشتهي اللبن الذي يناسبه ^(٣) . وهذا من قوله تعالى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ قَسْوَى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَى ﴾ ^(٥) ، فهو سبحانه خلق الحيوان مهتدياً إلى طلب

(١) (٢) درء تعارض العقل والنقل ٢٨٢/٨ - ٢٨٤

(٢) النبل ٧٨

(٤) طه ٥٠

(٥) الأعلى ٢ ، ٣

ما ينفعه ودفع ما يضره ، ثم هذا الحب والبغض يحصل فيه شيئاً فشيئاً
بحسب حاجته » .

٥ - ويرى ابن تيمية أن هذه (الفطرة) قد تتعرض للفساد كما
صرحت بذلك الأحاديث إذ يقول : « ثم قد يعرض لكثير من الأبدان
ما يفسد ما ولدت عليه من الطبيعة السلية والعادة الصحيحة ^(١) »
ولذلك توقّف الإمام أحمد بن حنبل عن البت في حكم أطفال
المشركين في الآخرة ، كما نقل عنه ابن تيمية ذلك بقوله :

« قلت : وأما ثبوت حكم الكفر في الآخرة للأطفال ، فكان أحمد
تارة يقف عن الجواب ، وتارة يردّهم إلى العلم ^(٢) ، كما نقل محمد بن
الحكم عنه ، وسأله عن أولاد المشركين فقال : أذهب إلى قول
النبي ﷺ : (الله أعلم بما كانوا عاملين ^(٣)) » ولذلك يقول ابن تيمية :

« وقد جاءت بذلك عدة آثار مرفوعة إلى النبي ﷺ ، وعن
الصحابة والتابعين : بأنه يمتحن أطفال المشركين وغيرهم ممن لم تبلغه
الرسالة في الدنيا . وهذا تفسير قوله : (الله أعلم بما كانوا عاملين) » ^(٤) .

(١) المرجع السابق ٢٨٤

(٢،٣) درء تعارض العقل والنقل (مرجع سابق) ٣٩٧/٨ ، وقد عزا ابن تيمية هذا
الحديث إلى (الصحيح) ٣٩٩ ومعناه : الله أعلم بما كانوا يعملون لو كبروا
وبلغتهم الرسالة .

(٤) المرجع السابق ٤٠١

الخلاصة والدلالة التربوية :

يمكننا أن نلخص عناصر هذا المبدأ التربوي ودلائله التربوية كما يلي :

١ - كل مولود يولد على الفطرة أي يولد سليماً من الانحراف والنقص الاعتقادي والعضوي والعقلي والنفسي وغيره ، فقد أطلق ابن تيمية قوله (سليماً) ليشمل كل سلامة تهم الإنسان وتخصّ جنسه .

٢ - يولد المولود على فطرة الإسلام والحنيفية ، أي على ميل واستعداد فطري لتقبل الإسلام والتوحيد ، كما يولد الحيوان وعنده استعداد غريزي لطلب ما ينفعه ، ودفع ما يضره ، لذلك لا يجوز قتل أولاد المشركين بل يجب تربيتهم لاستكمال فطرتهم .

٣ - تتحقق الفطرة إذ تنتقل من الاستعداد إلى الفعل شيئاً فشيئاً من خلال النمو المستمر ، بحسب حاجة الناشئ وتعرضه لمواقف الحياة وذلك إذا لم يعرض لها عارض من الفساد يمنعها . لذلك نزلت آيات الله وبعث الرسل لإحياء الفطرة ، والتذكير بما يلزم عنها . قال ابن تيمية :

« وأيضاً فإن أكثر الناس غافلون عما فطروا عليه من العلم ، فيذكرون بالعلم الذي فطروا عليه ، وأصل الإقرار من هذا الباب ولهذا توصف الرسل بأنهم يذكرون » .

فكانَّ الفطرة استعداد غريزي عند البشر للإيمان بالله وإسلام الوجه له ، وتوحيده - يعمل الرسل على إحيائه وتحقيقه - فهو استعداد (بالقوة) ينقلب بتذكير الرسل والعلماء إلى تحقيق (بالفعل) .

لذلك كانت التربية الإسلامية لجميع الأجيال حتمًا واجبًا على كل المربين لإحياء فطرة هذه الأجيال وإنعاشها وتحقيقها بالفعل .

٤ - ليس بقاء الإنسان على الفطرة مضمونًا ، بل قد يعرض لكثير من الأبدان والقلوب ما يفسد ما ولدت عليه من الفطرة والطبيعة السليمة والميل الفطري إلى الإسلام . لذلك ينبغي تطهير عقول الناس وعقائدهم وعبادتهم من كل البدع والانحرافات والأهواء ، حتى تبقى الفطرة في نضارتها وسلامتها ، وأن يستمر ذلك جيلاً بعد جيل لأن دواعي الانحراف مستمرة .

المبدأ الثاني : مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين

والمكلفين

الفروق الفردية : هي التمايز بين المكلفين والمتعلمين ، وتفاوتهم فيما بينهم بالتحصيل ، وبالقدرات والمهارات ، وبالاستعداد العقلي والذكاء ، وبصفاء الفطرة وسلامتها ، وغير ذلك مما يتفاوت فيه الناس في مجال التعلم والتكليف الشرعي .

وقد قرر ابن تيمية هذا المبدأ التربوي - الإسلامي في معرض الرد على من زعم أن أول واجب على المكلف النظر والاستدلال المؤديان إلى معرفة الله تعالى . وكان من أوائل من أبرز أهمية هذا المبدأ في عصرنا ، ووضعه موضع التنفيذ ، لتصنيف طلاب المدارس على أساسه ، المربي الفرنسي (بينيه) ؛ فقد وجدوا أن طلاب المدارس الابتدائية كانوا يغشونها ، أول ما يغشونها ، وهم على تفاوت في التحصيل والثقافة المنزلية والذكاء ، مما يسبب ارتباكاً في التعليم وفي معاملة الأطفال في السنة الأولى الابتدائية وما بعدها ...

لكن ابن تيمية سبق إلى هذا ، حين وجد أن الناس ، أول ما يكلفون بالشريعة الإسلامية ، أو يدخلون في الإسلام ، يكونون على تفاوت كبير فيما بينهم ، فمنهم الذي دخل سن البلوغ والتكليف وكان قد قضى طفولته بين أبوين مسلمين ، فأقرّ بالشهادتين وأقام الصلاة و .. ومنهم الذي انتقل من دار الكفر ودخل الإسلام . ومنهم أطفال المشركين الذين أخذوا في الحروب ، وهلمّ جرّاً ... فلا بد من التفريق بينهم في الحكم على كلٍّ من أين يبدأ ، ولا بُدَّ من معاملة كلٍّ على حسب تحصيله السابق وقدراته العلمية ، ومعلوماته . ونحو ذلك ...

لذلك قرر ابن تيمية هذا المبدأ التربوي ووضع بعض أسسه رداً على من زعم أن أول واجب على المكلف النظر والاستدلال دون أن

يراعي ظروف المكلفين وأحوالهم . فأقام هذا المبدأ على الاعتبارات التالية :

١ - اختلاف ترتيب الواجبات باختلاف أحوال الناس : قال ابن تيمية :

« وأول الواجبات الشرعية ، يختلف باختلاف أحوال الناس ، فقد يجب على هذا ابتداءً ، ما لا يجب على هذا ابتداءً . فيخاطب الكافر بالشهادتين عند بلوغه ، وذلك أول الواجبات الشرعية التي يؤمر بها . وأما المسلم فيخاطب بالطهارة ، إذا لم يكن متطهراً ؛ وبالصلاة وغير ذلك من الواجبات الشرعية التي لم يفعلها .

وفي الجملة ؛ فينبغي أن يعلم أن ترتيب الواجبات في الشرع واحداً بعد واحد ، ليس أمراً يستوي فيه جميع الناس ، بل هم متنوعون في ذلك . فكما أنه قد يجب على هذا ما لا يجب على هذا ، فكذلك قد يؤمر هذا ابتداءً بما لا يؤمر به هذا . فكما أن الزكاة يؤمر بها بعض الناس دون بعض ، وكلهم يؤمر بالصلاة ؛ فمن كان يحسن الوضوء وقراءة الفاتحة ونحو ذلك من واجباتها - أمر بفعل ذلك ؛ ومن لم يحسن ذلك أمر بتعلمه ابتداءً . ولا يكون أول ما يؤمر به هذا من أمور الصلاة هو أول ما يؤمر به هذا « ^(١) .

(١) دره تعارض العقل والنقل ١٦/٨ - ١٧ (مرجع سابق) .

وهكذا يقرر ابن تيمية أن ما يبدأ تكليف الناس به ، أو الناشئين يختلف باختلاف تحصيلهم السابق ، وباختلاف توفر شروط الوجوب عندهم ، فلا يعلمون شيئاً سبق أن تعلموه ، ولا يكلفون بشيء لم تتوفر فيهم شروط التكليف به كالزكاة . فلا يكلف بها إلا من توفر عنده المال الذي تجب فيه الزكاة ، وتقاس عليه الشروط العقلية ، والاستعدادات الفكرية .

٢ - اختلاف الناس بالتحصيل العلمي والمهارات العملية :
يميز ابن تيمية بين أمرين يختلف الناس في تحصيلهما : العلم والعمل ، فبعد أن ضرب لنا أمثلة عن الأمور والعبادات العملية يقول مبيناً الجانب الآخر :

« وهكذا الواجبات العقلية ، إذا قيل بالوجوب العقلي ، يتنوع الناس في ترتيبها ... وكما أنهم متنوعون في ترتيب الوجوب ، فهم متنوعون في ترتيب الحصول علماً وعملاً »^(١) .

فاختلاف الناس وتنوعهم في التحصيل العلمي والقدرة على هذا التحصيل أشار إليه بقوله : « فهم متنوعون في ترتيب الحصول علماً » والتنوع أبلغ من مجرد الاختلاف والتفاوت الكمي ، فالتنوع اختلاف مبني على الكيفية . وكيفية الحصول على العلم مبنية على

(١) المرجع السابق ١٦ - ١٧

الميل والقدرات العلمية والاستعداد العقلي ، فالناس في ذلك أنواع بعضهم غبيّ وبعضهم ذكي وبعضهم متوسط الذكاء ، والإسلام يأمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم ، وإلى هذا أشار ابن تيمية بكلامه هذا .

أما اختلاف الناس بالمهارات والقدرات العملية ، فقد عبر هنا عنه بكلمة واحدة « وعملاً » أي « وفي ترتيب الحصول عملاً » وقد بسطنا الأمثلة التي ضربها لذلك في الفقرة الماضية .

٣ - مراعاة هذه الفروق :

بعد أن قرر ابن تيمية وجود الفروق بين المكلفين ، وتنوعهم في التحصيل العلمي والقدرات العقلية ، وفي تحصيل العبادات وإتقانها والقيام بها ، بل وفي وجوبها - قرر استحالة معاملتهم بأسلوب أو بطريقة واحدة ، كما قرر أن طرق العلم بالله لا تحصر في طريق واحدة ، لأن أحوال المتعلمين واختلافهم وتنوعهم أمور لا حصر لها . فقال :

« وإذا كان الناس يتنوعون في الوجوب وترتيب الواجبات »^(١) أي في مدى وجوب التكليف عليهم بحسب أحوالهم ، وفي سن هذا التكليف ، « ويتنوعون في الحصول وترتيب

(١) المرجع السابق ٢١

الحاصلات - لم يمكن أن يجعل ما يخص بعضهم شاملاً لجميعهم»^(١) ،
فلا يجوز أن نعامل جميعهم بالأسلوب الذي نعامل به بعضهم ،
ولا أن نعمم عليهم جميعاً حكماً واحداً في بدء التكليف ، أو في
العبادة أو الأمر الذي يبدأ به تكليفهم .

« وكثير من الغلط في هذا الباب إنما دخل من هذا الوجه :
يصف أحدهم طريق طائفة ، ثم يجعله عاماً كلياً . ومن لم يسلكه
كان ضالاً عنده »^(٢) .

٤ - اختلاف طرق العلم :

لهذا يقرر أن طرق العلم وأسبابه وترتيبه لا يجوز أن تحصر في
ترتيب أو في أسلوب معيّن . ويعيب على هؤلاء المتكلمين حصرهم
لها إذ يقول : « وحصر هؤلاء العلم بالله وبصدق رسله في ترتيب
معيّن ، وحصر هؤلاء للوصول إلى الله في طريق معيّن ، كل هذا ،
مع كونه في نفسه مشتملاً على حق وباطل ، فالحق منه لا يوجب
الحصر ... وطرق العلم والأحوال وأسباب ذلك وترتيبه - أوسع من
أن تحصر في بعض هذه الطرق »^(٣) .

ويلزم عن هذا أن يترك للعالم المربي مجال كافٍ ليوّجه كل
طائفة من المتعلمين إلى الطريق الذي يناسب تحصيلهم وأحوالهم ...

(١) (٢) (٣) المرجع السابق ٢١

ولئن كان شرح ابن تيمية لهذا المبدأ غير وافٍ ولا موسّع ، فلأنه جاء عَرَضاً ، من خلال الرد على أسلوب المتكلمين ورأيهم في أول ما يبدأ به التكليف . لكن أسلوبه الرصين ، وإيجازه المُقنِع ، وحسن انتقائه للألفاظ ذات الدلالة الواسعة ، كل ذلك أعان على استنباط ما استنبطنا من حقائق هذا المبدأ التربوي ، وبالله التوفيق .

المبدأ الثالث : تصديق العلم بالعمل

يرى ابن تيمية أن الإيمان لا يتم إلا بمطابقة الأعمال للعلوم والأقوال ، وهذه المطابقة إنما تتم بالعزم والإرادة ، وعلى هذا يمكن بناء هذا المبدأ على الأفكار والمسلمات التالية :

١ - الإيمان قول وعمل

هذه الحقيقة كررها ابن تيمية في مواضع من رسائله ، ولا غرور فهي من أصول الإيمان عند أهل السنة والجماعة ، وتتجلى بوضوح عند أحمد بن حنبل ، وابن تيمية من مؤيدي مذهبه والعاملين به . وقد علق ابن تيمية على كلام نُقل عن (الجنيد) أحد أعلام الصوفية المعتدلين المستقيمين على الشريعة ، فقال :

« وهذا كلام حسن يناسب كلام الجنيد ، وقد خُفّن هذا الكلام التمييز بين الخلق والخالق ، وذكر أصلين : التصديق ، والالتقياد .

لأن الإيمان قول وعمل . فذكر معرفة الصانع ، وذكر النذل لدعوته ،
والاعتراف بوجوب طاعته «^(١) .

فالإيمان لا يتم إلا بأن يصدق العمل ، ويحقق مقتضاه ولوازمه
ومعناه ، لذلك كان التصديق بوجود الله ووحدانيته وقدرته وألوهيته
لا يتم إلا إذا رافقه ، أو تبعه الانقياد لأوامر الله وشريعته وإظهار
العبودية له ومن طبيعة الإيمان أن يحرض الوجدان على محبة الحق
والعمل به ، وعلى تجنب المشاعر الخبيثة وتجنب الأعمال الشريرة ، كما
قال ابن تيمية :

« .. ولذلك : الفاجر بالعمل ، معه من الإيمان بقبح الفعل
ويغضه ، ما هو داعٍ إلى فعل المأمور به أو داعٍ إلى تركه - يعني ترك
القبيح - لكن عارض ذلك من هواه مامنع كال طاعته ، بخلاف
المكذب لرسول الله والكافر به «^(٢) .

٢ - الإرادة أساس العمل

إذا كان الإيمان يحرض الوجدان ويدعو إلى العمل فهو الذي
تتولد عنه الإرادة . والعزم هو الذي تتولد عنه الطاعات والجهاد ،
فهو أساس العمل كما قال في تمام تعليقه على كلام الجنيد :
« وهذا من أصول أهل السنة ، وأئمة المشايخ ... فإن أصل

(١) الاستقامة (مرجع سابق) ١٤٤/١ - ١٤٥

(٢) جامع الرسائل (مرجع سابق) مجلد ٢٤٥/١

طريقتهم الإرادة التي هي أساس العمل ... وهذا حق ، فإن الدين والإيمان قول وعمل وأوله قول القلب وعمله ، فمن لم ينقد بقلبه ، ولم يذل لله - لم يكن مؤمناً ، ولا داخلياً في طريق الله «^(١) .

فترى ابن تيمية يقر الطريق الصحيح إلى الله وهو المبني على الإرادة ، والإرادة ناشئة عن تصديق القلب ، وقد عبر عنه (بقوله القلب) وعن عزمه (عمله) .

٣ - الارتباط بين العلم والعمل

يرى ابن تيمية أن الرابطة بين العلم والعمل محكة من الطرفين ، فلا يجدي أحدهما بدون الآخر . ذلك أن « التكليف مشروط بالتمكن من العلم والقدرة ، فلا يكلف العاجز عن العلم ما هو عاجز عنه .. لكن إذا تجدد له قدرة على العلم صار مأموراً بطلبه ، وإذا تجدد له العلم صار مأموراً حينئذٍ باتباعه »^(٢) ، وهكذا يشترط التمكن من العلم والقدرة عليه ، ليم التّكليف ، فلا تكليف بدون قدرة على العلم .

أما المؤاخذة على ترك العمل فيؤخذ منها وجوب العمل إذا حصل العلم ، ومن لم يعمل كان مذموماً كما قال : « وصار حينئذٍ في هذه الحال مذموماً على ترك ما يقدر عليه من طلب العلم الواجب ، وعلى ترك اتباع ماتبين له من العلم »^(٣) .

(١) الاستقامة (مرجع سابق) ١٤٤ - ١٤٥

(٢ و٣) جامع الرسائل (مرجع سابق) مجلد ١/٢٤٠

الخلاصة والدلالة التربوية :

يمكننا أن نستنبط من هذا المبدأ الأمور التربوية التالية :

١ - لا يتم الإيمان إلا إذا صدقه العمل ، فالإيمان بالله يتم إذا أسلم المؤمن وجهه وعمله وسلوكه لله ، واتبع أوامر الله واتباعه إليه ...

٢ - الإيمان يدعو إلى الشعور بقبح الفعل المذموم والمحرم ، وإلى فعل الواجبات والأفعال المأمور بها ، فعلى أن نبداً بغرس الإيمان عند النشء إذا أردنا تربية ضائهم على حب الخير وبغض الشر .

٣ - يتولد عن الإيمان عزم وتصميم على العمل بمقتضاه ولوازمه ، ولذلك يجب ربط أعمالنا بالخوف من الله في مواقف الحياة ، وبهذا تحصل الإرادة وهي أساس العمل ، فتربية الإرادة ملازمة للإيمان .

٤ - من شروط التكليف القدرة على العلم ، فإذا حصل العلم وجب العمل به ولذلك يجب تربية النشء على أن توافق أعمالهم الشرع ، وكل علم لا يعمل به ، مذموم صاحبه ومؤخذ عند الله .

٥ - إذا جمع الإنسان بين العلم والاعتقاد والإرادة ، وحسبه حابس عن العمل كتب له ثواب العمل ، كما قال ابن تيمية معقلاً على حديث

« إن بالمدينة لرجالاً ، ماسرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا

معكم ، حسبهم العذر»^(١) قال ابن تيمية « فهؤلاء لهم علم بالأمور الكامل ، واعتقاد الأمر به وإرادة فعله بحسب الإمكان »^(٢) أي لهم ثواب كما دلّ عليه سياق الكلام . وهذا من الحوافز على تربية الإرادة والعزم على عمل الخير .

المبدأ الرابع : وجوب طلب العلم والحق حتى يبلغ درجة اليقين

١ - تكاد تجدد هذا المبدأ ، بشكل أو بآخر ، عند كل علماء الإسلام ، وخاصة المحدثين ، والفقهاء ، ومصدرهم فيه حضّ القرآن والسنة ، وضرورة العلم لكل مكلف ولكن أحداً لم يعرضه كما عرضه ابن تيمية هنا ، عرضاً اقترن فيه وجوب طلب العلم بوجوب طلب الوصول إلى اليقين في معرفة الحق ، فالإنسان « مادام غير مستيقن للحق ، فهو مأمور بطلب العلم الذي يبين له الحق »^(٣) فالهدف هنا من طلب العلم هو الوصول إلى الحق وبلوغ درجة اليقين في معرفته ، وليس مجرد تحقيق أي علم أو أية معرفة .

٢ - ويعتمد ابن تيمية على الطبيعة الإنسانية ، في مطلبه لهذا

(١) جامع الرسائل مجلد ٢٤٢/١ (مرجع سابق) .

(٢) المرجع السابق ٢٤٢

(٣) جامع الرسائل (مرجع سابق) ٢٤٠

البدأ ، فمن طبيعة الإنسان أن يعرف من نفسه ما إذا كان قد توصل إلى العلم اليقيني ، « والمعتقد المخطئ لا يكون مستيقناً قط ، فإن العلم واليقين يجده الإنسان من نفسه ، كما يجد سائر إدراكاته وحركاته ، مثلما يجد سمعه وبصره ، وشتمه وذوقه . فهو إذا رأى الشيء يقيناً يعلم أنه رآه ، وإذا علمه يقيناً يعلم أنه علمه . وأما إذا لم يكن مستيقناً ، فإنه لا يجد ما يجده العالم كما إذا لم يستيقن رؤيته لم يجد ما يجده الرائي » (١) .

وهذه الطبيعة في الإنسان أمر مسلّم به يجده ويحسّه « مثلما يجد سمعه وبصره وشتمه وذوقه » فلا عذر له في التوقف أو التردد في طلب الحق .

٣ - لذلك بنى وجوب طلب العلم اليقيني ، على ما قرر من قدرة الإنسان على أن يعرف أنه وصل إلى اليقين أو لم يصل ، ويرتب المسؤولية على التقصير في طلب هذا العلم اليقيني إذ يقول :

« وإذا كان الإنسان مأموراً بطلب العلم الذي يحتاج إليه ، بحسب إمكانه ، وهو إذا لم يجد العلم اليقيني يعلم أنه لم يجد العلم ، فهو مأمور بالطلب والاجتهاد . فإن ترك ما أمر به كان مستحقاً للذم والعقاب على ذلك . فإذا تبين له الحق وعلمه ، وعلم أنه كان جاهلاً

(١) جامع الرسائل (مرجع سابق) ٢٤٠

به ، معتقداً غير الحق ، كان تائباً ، بمعنى أنه رجع من الباطل إلى الحق»^(١) .
٤ - وسبب الجهل والتقصير في طلب الحق والوصول إلى اليقين ،
هو غالباً اتباع الظن والهوى . وبهذا يصف ابن تيمية المقصر في ذلك ،
متابعاً كلامه السابق :

« .. وكان أيضاً تائباً مما حصل فيه أولاً من تفريطه في طلب
الحق ، فكثير من خطأ بني آدم من تفريطهم في طلب الحق ، لا من
العجز التام . وكان أيضاً تائباً من اتباع هواه أولاً بغير هدى من الله .
فإن أكثر ما يحمل الإنسان على الظن الخطئى هو هواه^(٢) ، كما قال
تعالى : ﴿ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾^(٣) .

٥ - لكن ابن تيمية كان واقعياً في تعميم هذا المبدأ ، كما كان واقعياً
في تقريره لمبدأ الفروق الفردية .

فهو هنا يجعل مبدأ طلب العلم مشروطاً بالتمكن من طلب العلم
والقدرة عليه ، ويطالب الناس به ضمن هذه الحدود ، وذلك حين
يقرر أن « التكليف مشروط بالتمكن من العلم والقدرة ، فلا يكلف
العاجز عن العلم ما هو عاجز عنه »^(٤) .

(١) المرجع السابق ٢٤١

(٢) جامع الرسائل (مرجع سابق) مجلد ١/٢٤١

(٣) النجم ٢٣

(٤) جامع الرسائل (مرجع سابق) مجلد ١/٢٤١

المراجع

المؤلف	اسم المرجع	دار النشر وتاريخ الطباعة
	القرآن الكريم	
	صحيح البخاري	طبعة الحلبي بمصر
	صحيح مسلم	طبعة استامبول
	مسند الإمام أحمد	الطبعة القديمة
محمد أبو زهرة	ابن تيمية	دار الفكر العربي الطبعة الثانية ١٩٥٨ م
ابن كثير	البداية والنهاية	
الشيخ عبدالعزيز المرافي	ابن تيمية	
الشيخ محمد هجة البيطار	حياة شيخ الإسلام ابن تيمية	المكتب الإسلامي بدمشق ١٣٦٠ هـ / ١٩٦١ م
ابن تيمية	درء تعارض العقل والنقل	ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م
ابن تيمية	العبودية	ط. الخامسة. المكتب الإسلامي بيروت

ابن تيمية	الرسالة التدمرية	مطبعة الإمام بمصر. تصحيح وتقديم محمد زهري البخاري
ابن تيمية	السياسة الشرعية	المطبعة الخيرية بمصر ١٣٢٢ هـ
ابن تيمية	الاستقامة	جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض
ابن تيمية	جامع الرسائل	تحقيق د. محمد رشاد سالم. مطبعة المدني- القاهرة
ابن تيمية	مجموعة الرسائل الكبرى	المطبعة الشرفية. حسين أفندي شرف سنة ١٣٢٤ هـ

مسرد البحوث

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٥
مقدمة	٧
ترجمة ابن تيمية : مولده وأسرته	١١
نشأته وبيئته	١٢
تدريسه ومنهجه	١٥
ابن تيمية في ميدان السياسة والقتال	١٧
محنته وسجنه ووفاته	١٩
اهتماماته التربوية	٢١
أسس التربية :	٢٢
الأساس الديني : الإقرار بالشهادتين	٢٢
الدلالة التربوية للأساس الديني	٢٢
الشمول التربوي للشهادتين	٢٩
الأساس الثاني : الأساس الاجتماعي	٣٢
التنظيم الاجتماعي ومنهجه	٣٢
نظريته في الاجتماع والحكم : أركان الاجتماع البشري :	٣٥
الركن الأول : أولو الأمر	٣٥
شروط أولي الأمر :	٣٧
١ - الأمانة	٣٧
٢ - القوة	٣٨

الموضوع	الصفحة
الركن الثاني : الرعية	٣٩
الركن الثالث : العلاقة بين الولاية والرعية	٤١
الخلاصة والدلالة التربوية	٤٥
الأساس الثالث : الأساس المنهجي الفكري	٤٧
مصادر المعرفة : ١ - ما جاءت به الرسل	٤٨
منهج ابن تيمية في الرجوع إلى الكتاب والسنة	٥٢
١ - فهم النص عن طريق النبي ﷺ	٥٢
٢ - صحة السند	٥٣
٣ - الفهم اللغوي للنص	٥٥
٤ - القياس على النص	٥٨
الخلاصة والدلالة التربوية	٦١
٢ - المصدر الثاني : الفطرة : نظريته في الفطرة	٦٤
الخلاصة والنتائج التربوية	٦٧
المصدر الثالث : الأدلة العقلية :	٦٩
الاستدلال بحدوث الإنسان	٧٠
الأدلة العقلية في القرآن	٧٣
المصدر الرابع : الإدراك بالحواس	٧٥
أثر القلب في الإدراك الحسي	٧٧
٥ - المصدر الخامس : النقل والخبر والتواتر	٧٨
٦ - المصدر السادس : الإلهام	٨١
تعريفه وعلاقته بالفطرة	٨١
شروط الإلهام	٨٣
أ - موافقة الشرع	٨٣
ب - الإيمان والتقوى	٨٥

الموضوع	الصفحة
بعض المبادئ التربوية	٨٨
المبدأ الأول : كل مولود يولد على الفطرة	٨٨
معاني الفطرة : الاستعداد للإسلام	٨٩
السلامة من الانحرافات والعيوب	٩٠
معنى الولادة على الفطرة	٩٢
انحراف الفطرة وتعرضها للفساد	٩٣
الخلاصة والدلالة التربوية	٩٤
المبدأ الثاني : مراعاة الفروق الفردية	٩٥
١ - اختلاف الناس فيما يترتب عليهم من الواجبات	٩٧
٢ - اختلاف الناس بالتحصيل والمهارات	٩٨
٣ - مراعاة هذا الاختلاف	٩٩
٤ - اختلاف طرق العلم	١٠٠
المبدأ الثالث : تصديق العلم بالعمل	١٠١
١ - الإيمان قول وعمل	١٠١
٢ - الإرادة أساس العمل	١٠٢
٣ - الارتباط بين العلم والعمل	١٠٣
الخلاصة والدلالة التربوية	١٠٤
المبدأ الرابع : وجوب طلب العلم والحق حتى اليقين	١٠٥
المراجع	١٠٨

هذا الكتاب هو الحلقة الأولى في سلسلة أعلام التربية التي قصّنا من ورائها أن « نجلي الأفكار التربوية المغمورة لعدد من أعلام الفكر الإسلامي » والتي تفوق الكثير « من مبادئ التربية المعاصرة في الشمول والمرونة والتطبيق » .

وحلقتنا الأولى هذه عن الآراء التربوية لدى (أحمد بن تيمية) العالم المجاهد ، والمعلم المصلح الكبير ، الذي طبّقت شهرته آفاق الزمان والمكان ، حتى عرفه العباد في كل البلاد .

ونسأل الله أن تكون فاتحة هذه السلسلة به طيبة مميّزة .

الموزعون المحضرون



دار الحكمة الإسلامية للنشر والتوزيع
المجسورة الإسلامية الحديثة - صنف ٤ - شارع العقوليين - الرياض
صوب: ١١ - ٢١ - هاتف: ٢٢٤٨١٢٢ - ٢٢٤٨١٢٢ - فاكس: ٢٢٤٨١٢٢

الموزعون المحضرون



دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد - كوت - ساحة الجوز - خلف الكارلوس
صوب: ٣٦٦٤٤٤٤٤ - هاتف: ٨٦٠٧٣٩٩ - فاكس: ٤٤٣١٦ LE